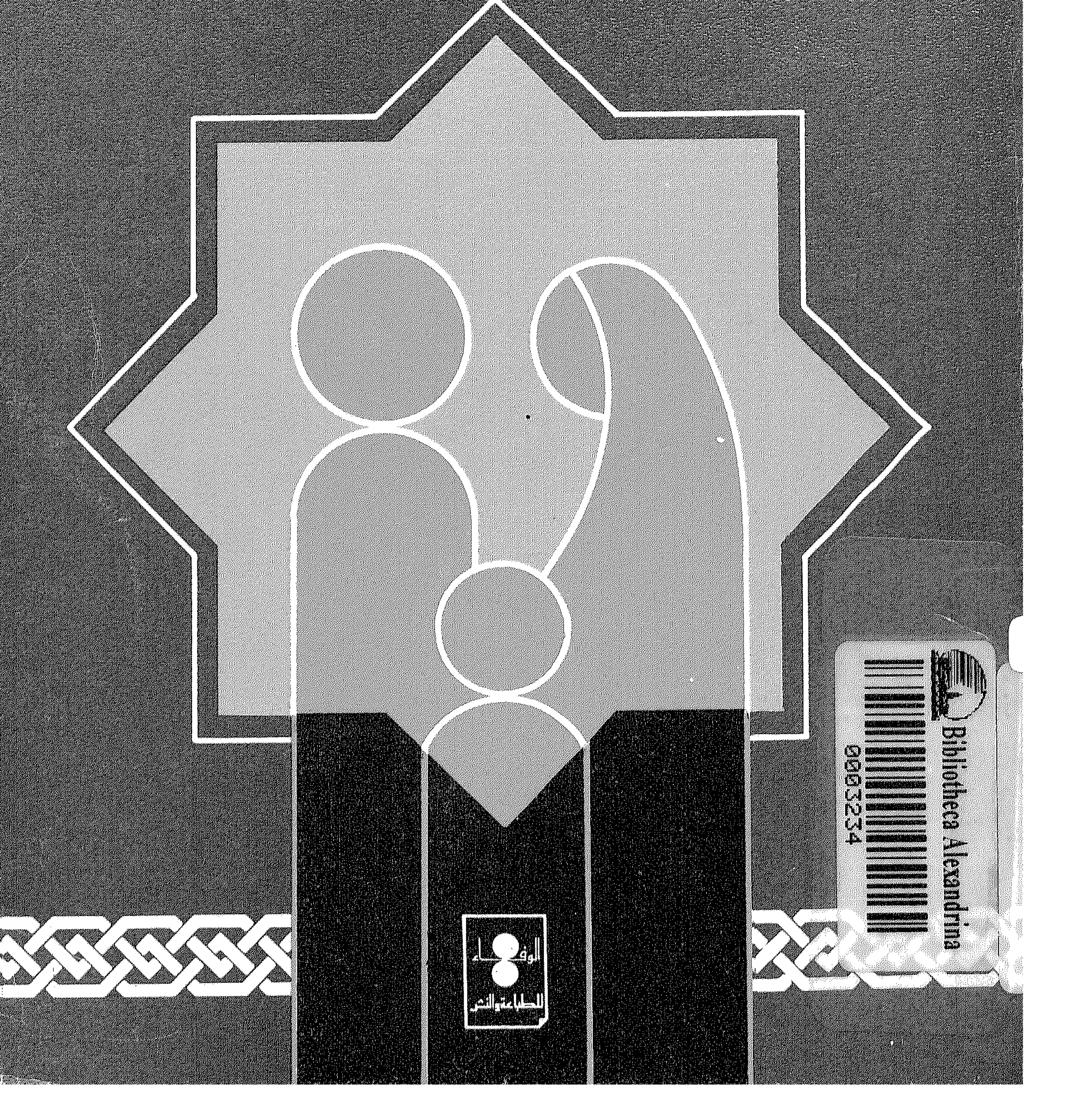
الدكتور محمد السيد الوكيل

قواعد البناء
في المجتمع الإسلامي





قواعد البناء

في المجتمع الإسلامي

الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٦ م

الطبعة الثانية ١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩ م

الوفاء للطباعة والنشر

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة . ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ص . ب : ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

قواعد البناء

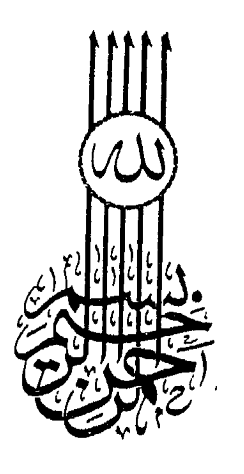
في المجتمع الإسلامي

الدكتور محمد السيد الوكيل

أستاذ التاريخ الإسلامي
بالجامعة الإسلامية
المدينة المنورة

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش.م.م





بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

إن الإسلام الحنيف قد أقام مجتمعه على قواعد وأسس تدعم بنيانه وتشد أركانه ، وتقاوم كل اعتداء ، وتتحدى كل العقبات مهما كانت قوية وعنيفة ، لأن تلك القواعد أقوى وأصلب من كل محاولات الهدم التى يحاولها أعداء الإسلام .

وهذا هو السر فى بقاء الإسلام قويا بذاته وإن تخلى عنه كثير من أبنائه ، فقد مضى عليه أربعة عشر قرنا ولا يزال جديدا يحمل للناس كل ما يحتاجون إليه فى معاشهم ومعادهم ، ومرت به أزمات لونزلت بالجبال لفتتتها ، وواجهته عقبات لو صادفها الفولاذ لأذابته ، ونزل به ضربات لو نزلت بغير الإسلام لأصبح ذكرى يتحدث عنها التاريخ . وتكالب عليه أعداؤه وأصدقاؤه منفردين ومتعاونين فحاكوا له المؤامرات ودبروا له الدسائس ليكيدوا له ويدمروه .

ولكن هيهات فقد خرج من كل ذلك قويا بذاته ، ولا يزال صامداً فى الميدان ، شامخا يطاول نجوم السماء ، وعزيزا وإن لم يجد له أنصاراً ، وإننا لنلاحظ أنه كلما ابتعد المسلمون عن دينهم سخر الله له من يحمل رايته ، ويدفع عنه المعتدين ، ويحبط كيد الكائدين تحقيقا لقوله ـــ جل جلاله : ـــ ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم ﴾ (1)

---

(1) سورة محمد الاية ٣٨

وقد يكون الذين يتحمسون لنصرة الإسلام والدفاع عنه ليسوا بالصالحين ولاهم فى عداد الأتقياء المخلصين ، ولكن دفاعهم يكون حمية وعصبية ، وهذا هو المقصود بقول الرسول ﷺ ــ « إن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر »[(١)]

ويجب أن نعلم أن هذا الدين هو خاتم الأديان ، فلابد أن يبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، لأنه لادين بعده يخلفه كما حدث للأديان الأخرى وإذا كان لابد من بقاء الإسلام فإنه سيظل غالبا ظاهراً على كل الأديان ، متغلبا على كل العقبات ، صامداً فى وجه الأزمات ، متحدياً لكل الطواغيت ، ولن تستطيع قوة فى الأرض مهما كانت أن تزيله من الوجود لأنه محفوظ بحفظ الله عز وجل .

نعم ، قد يتوارى الإسلام عن الميدان ، وقد ينأى عن ساحات العمل وقد توضع نظمه وتشريعاته على الرفوف أو فى أدراج المكاتب ، ولكنه رغم ذلك كله لايموت ولاتنتهى صلاحيته ، بل سيبقى ينتظر الساعة التى يأخذ فيها مكانه الطبيعى فى القلوب وفى ساحات العمل على حد سواء ، فى المصانع والمزارع ، فى المكاتب والمتاجر ، فى الجامعات والمدارس ، وماذلك على الله بعزيز .

إن قوة الإسلام كامنة فى طبيعته ونظمه ، يستمدها ممن أنزله على عبده ونبيه ــ محمد ــ ﷺ ــ فهو دين ارتضاه الله لعباده المؤمنين وأكمله على النحو الذى يجعله صالحا لكل زمان ومكان ، مصداقا لقوله ــ عز من قائل ــ ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ [(٢)]

ولكى يبقى الإسلام حتى تقوم الساعة ، وضع الله ــ عز وجل ــ قواعده قوية متينة تتحمل الهجمات ، وتواجه التحديات ، وهذه القواعد التى سأبينها فيما بعد ، هى قواعد بناء فى المجتمع الإسلامى .

(١) رواه الطبرانى فى الكبير ولفظه : إن الله ليؤيد الدين بالرجال الفاجر .

(٢) سورة المائدة الآية : ٣ .

وأقصد بالمجتمع الإسلامى ذلك المجتمع الملتزم بتعاليم الإسلام ، المطبق لحدود الله ، الخاضع لأوامره ونواهيه ، والمجتمع مهما كان أفراده مسلمين ، ومهما كانت حكومته مسلمة لايسمى مجتمعاً إسلامياً مادام الناس فيه لم يلتزموا بتعاليم الإسلام ، ولم يخضعوا لأوامر الله ونواهيه ، ولم يطبقوا حدود الله فيه .

وقواعد البناء فى هذا المجتمع لابد أن تكون مستمدة من كتاب الله ـــ عز وجل ـــ وسنة رسوله ـــ ﷺ ـــ لأن قواعد البناء فى كل مجتمع هى التى تحدد ملامحة ، وتعيِّن شخصيته ، وتبرز هويته ، فإذا أخذت هذه القواعد من أى مصدر غير القرآن والسنة كان المجتمع صورة لتلك المصادر التى استمد منها قواعده .

فإذا كانت قواعد البناء غربية النزعة كان المجتمع غربى الملامح غربى التفكير ، وكذلك إذا كانت القواعد شرقية المأخذ كان المجتمع شرقى الصفات شرقى العقلية ، وهكذا يتأثر كل مجتمع بالقواعد التى يؤسس عليها بناؤه ، ومصادر تكوينه .

لهذا كان من الضرورى أن تكون قواعد البناء فى المجتمع الإسلامى إسلامية خالصة مصدرها كتاب الله ـــ تبارك وتعالى ـــ وسنة نبيه ـــ ﷺ ـــ وعمل السلف الصالح ـــ رضوان الله عليهم أجمعين ـــ

وسنرى فى هذا البحث ما يوضح هذا كله ـــ إن شاء الله ـــ ولست أقصد هنا قواعد الإسلام ، ولا أركان الإيمان ، فذلك أمر قد اصطلح المسلمون على فرضيته على كل مسلم ، ولكننى أقصد القواعد التى أسهمت فى إقامة المجتمع الإسلامى حتى تميز بخصائصه ، وذلك من حين الاهتمام بالفرد حتى تكوين الحكومة التى أذعن لها المسلمون ، وخضعوا لها طائعين لا مكرهين . هذا وإنى أسأل الله ـــ العلى القدير ـــ أن يوفقنى فى إبراز خصائص المجتمع الإسلامى ، وأن يلهمنا رشدنا لنسير على هدى سلفنا الصالح فهو سبحانه ـــ

ولينا وهو حسبنا ونعم الوكيل ،

د / محمد السيد الوكيل

١٠ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٥ هـ

المدينة المنورة فى يوم الجمعة ٢٩ فبراير سنة ١٩٨٥ م



الفصل الأول
العقيدة الصحيحة

إن العقيدة الصحيحة هى أساس كل بناء عند المسلمين ، وأى عمل يعمله المرء ليس مبنيا على العقيدة فهو عمل باطل مهما كان عظيما فى أعين الناس ، ولهذا فإننا نرى أن أعمال الكافرين كلها لاتزن شيئا مهما عظمت وكانت نافعة للناس فى هذه الحياة ، والسر فى ذلك أنها لم تصدر عن عقيدة صحيحة ، ولم تنبت من إيمان خالص ، وهذا هو السر فى أن أعمال الكافرين تكون يوم القيامة هباءً منثورا ، قال الله ــ تعالى : ــ ﴿ وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾[1]

إن الله تبارك وتعالى ــ يعمد إلى أعمال الكفار ، وهى أعمال جليلة فى أعين الناس فهم يطعمون الطعام ، ويعطفون على الأيتام ، ويرحمون الطيور والحيوانات ، ويبنون الملاجىء والمستشفيات ، وهناك فريق منهم يكد ذهنه ، ويرهق عقله ، ويركز فكره ليبدع ويبتكر ما يفيد الناس ويخفف عنهم صعوبات الحياة ومشقاتها كل هذا وأمثاله أعمال تستحق التقدير ، ويستحق أصحابها الثناء والتبجيل ، ولكن ذلك لا يعد وهذه الحياة الدنيا ، فإذا انقلبوا إلى الحياة الحقيقية ، لايجدون لشيء مما صنعوا أجرا ولا جزاء ، بل ولا يسمعون كلمة طيبة ولاثناء .

قد يندهش لذلك كثير من الناس ، لأنهم كانوا يعتقدون أن هؤلاء بأعمالهم سينالون أرفع الدرجات فى الآخرة ، ولكن هذه الدهشه قد تزول ويزول معها

(١) سورة الفرقان الآية ٢٣ .

العقيدة الصحيحة الذين يعملون ما يعملون فى الدنيا لا يريدون به إلا وجه الله ــ عز وجل ــ إن الله هو الذى سيحاسب الناس ، وهو الذى سيمنح من يشاء بره وعفوه ، فإذا قدم عليه من لم يرد بأعماله وجهه ، ولم يقصد بما يقدمه من العمل ما عنده ، فإنه جل شأنه ــ يحرم ولا يبالى به بالة .

إن الذين يعملون الأعمال الصالحة يريدون بها مراءاة الناس ، والذين يقدمون أعمال البر والمعروف يقصدون بها الإنسانية ، عليهم أن يلتمسواأجورهم ممن عملوالهم ، إن العامل إذا عمل عملا لإنسان ما لايستحق أجره إلا ممن عمل له ، فإذا جاء يطلب أجره من غيره باء بالخسران ، ورجع خالى الوفاض ، وهؤلاء لم يعملوا شيئا لله فلماذا يطمعون فيما عند الله ؟ إن العقيدة الصحيحة عند المسلمين تتلخص فى الإيمان بإله واحد متصف بكل صفات الكمال التى وصف بها نفسه ــ جل وعلا ــ من غير تأويل ولا تحريف ولا تشبيه ولاتعطيل ، ويدخل فى ذلك الصفات التى وصفه بها نبيه محمد ــ ﷺ ــ وبلغتنا عن طريق صحيح .

فنحن نؤمن بهذه الصفات ، ولا نسأل عن كيفية الاتصاف بها ، ونؤمن كذلك بأن الله ــ عز وجل ــ قريب من خلقه ليس بينه وبينهم واسطة ، ولا يحتاجون فى سؤاله إلى واسطة ، ونؤمن بوجوب صرف كل أنواع العبادة له ــ جل شأنه ــ ولا يجوز صرف شىء منها إلى غيره .

وذلك كالنذر والاستغاثة والاستعانة والتوكل والخوف والرجاء .

ونؤمن بأن محمدا ــ ﷺ ــ عبد الله ورسوله اصطفاه من خلقه وأرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وأن شريعته هى خاتمة الشرائع السماوية ليس بعدها شريعة ، وأنه خاتم النبين لانبى بعده ، وكل من وصف الله بغير ما وصف به نفسه أو وصفه به نبيه من صفات الكمال فهو مبتدع ضال ، وكذلك كل من صرف شيئا من أنواع العبادة لغير الله ــ عز وجل ــ معتقداً أنه يقبل منه ، أو يضره أو ينفعه فهو مشرك جاحد .

وكل من أنكر نبوة محمد ـــ ﷺ ـــ أو أنكر أن القرآن الذى بين أيدينا، كلام الله أنزله على نبيه دستوراً لهذه الأمة ، ومنهجا رشيدا لها فهو كافر ، وكذلك من قال بأن القرآن مخلوق .

ويدخل فى ذلك من اعتقد فى السحر والكهانة وأن ذلك يضر وينفع بغير مشيئة الله ـــ عز وجل ـــ وكذلك من يعتقد أن هناك من يعلم الغيب ، ويخبر به كل ذلك يؤدى إلى الكفر والعياذ بالله ـــ تعالى ـــ .

ونؤمن بأن الله أرسل رسلاً كثيرين قبل محمد ـــ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـــ وأنزل كتابا ليبين للناس مايجب عليهم معرفته من أمور عقائدهم وشرائعهم . ونؤمن بأن لله ملائكة مخلوقين من النور وهم كما وصفهم الله ـــ عز وجل ـــ كرام بررة ، لايعصون الله ماأمرهم ، ويفعلون مايؤمرون ، وهم متفاوتون فى الخلقة ، لايوصفون بذكورة ولاأنوثه ، ولايأكلون ولايشربون ، يسبحون الليل والنهار لايفترون .

وهم يقومون بأعمال كلفهم الله ـــ عز وجل بها ـــ فمنهم حملة العرش ، ومنهم ملك الجبال ، والروح الأمين جبريل رسول الله إلى رسله من خلقه ، ومنه خازن النار وآخرون معه عليها وهؤلاء غلاظ شداد كما وصفهم ربنا ـــ جل جلاله ـــ ومنهم الذين يحرسون بنى آدم وهم المتعاقبون فيهم يحفظونهم من أمر الله ، ومنهم رقيب وعتيد وأحدهما يسجل حسنات الإنسان والآخر لسيئاته ، ومنهم الموكلون بعذاب القبر ونعيمه منكر ونكير ، ومنهم ملك الموت الذى يقبض أرواح المخلوقات ، ومنهم رضوان خازن الجنة . وكذلك نؤمن بأن هناك عالما آخر خلقه الله من النار ، وهم الجن ، وهم يأكلون ويشربون ويتزوجون ويتكاثرون ، وهم مكلفون بما كلف به الإنسان ، ومنهم المؤمنون والكافرون وقد جعل الله منهم قرناء للآدميين ، وهم قادرون على التشكل بأشكال مختلفة .

ونؤمن بأن اليوم الآخر حق ، جعله الله ـــ تعالى ـــ ليوفى كل نفس

ماعملت ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، ونؤمن بأن الجنة حق وهى دار المتقين ، وأن النار حق وهى مقر الكافرين ومحل عذاب العصاة من المؤمنين ، وأن الصراط حق والميزان حق وأن الموت حق ، وأن سؤال القبر حق ، وأن عذابه ونعيمه حق . ونؤمن بقضاء الله وقدره ، وأنه ـــ سبحانه ـــ لاراد لقضائه ، ولامعقب لحكمه ، وأن مقدره كائن لامحالة .

هذه أمور متفق عليها من علماء الأمة وسلفها لايرد شيئا منها إلا هالك مبتدع ضل طريق المؤمنين ، وسلك غير سبيلهم ، فهو يوم القيامة من الخاسرين . ونحن لانكفر مؤمنا ظاهره الايمان ، ولانتهمه فى عقيدته ، ولا نمتحنه لنختبر صحة عقيدته إلا أن يبدو منه مايدل على فسادها أو انحرافها لأن ذلك هو سبيل السلف ، ومسلكهم مع كل من نطق بالشهادتين ، ولم يبد منه مايدل على خلل فى العقيدة أو انحراف فى الاعتقاد ، وإنما أخذ السلف بذلك اقتداء بنبينا محمد ـــ ﷺ ـــ فلم يرو عنه أنه اتهم مسلما فى عقيدته أو أجلسه ليختبره ، بل كان يقبل ممن يأتيه مسلما النطق بالشهادتين دون أن يعلمه التوحيد بمعناه وأقسامه التى تعورف عليها فيما بعد .

وقصة إسلام ضمام بن ثعلبة ـــ رضى الله عنه ـــ معروفة فى الصحيح ، حيث نطق بالشهادتين ، وعرف مافرضه الله على كل مسلم فى جلسة واحدة مع الرسول ـــ ﷺ ـــ وقام وهو يقول : والله لاأزيد عليها ولاأنقص .
فقال الرسول ـــ ﷺ ـــ : (أفلح وأبيه إن صدق)[١] وفى رواية (إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة)[٢]

فأين فى هذه القصة تعليم ضمام التوحيد بأقسامه ؟ وهل رفض رسول الله إسلام ضمام حتى يعلم معنى لاإله إلا الله ؟ وهل وجه إليه أسئلة ليتأكد من صحة

---

(١) متفق عليه
(٢) ابن القيم (٣ / ٩٦)

عقيدته ؟؟

نحن لم نلاحظ فى القصة شيئا من ذلك ، بل ولم يلاحظه أحد من علماء الأمة سلفها وخلفها ممن يعتمد على فقههم فى هذه المسألة .

ويؤكد صحة ماذهبنا إليه خبر ذات الأنواط ، وهى شجرة كان العرب من قريش وغير قريش يأتون إليها كل عام ، ويعلقون أسلحتهم عليها ، ويعكفون عليها ، ويذبحون عندها ، فلما مروا بها وهم فى طريقهم إلى حنين لقتال المجتمعين من المشركين هناك قالوا : يارسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط .

فقال ــ ﷺ ــ:) الله أكبر !! قلتم ــ والذى نفسى بيده ــ كما قال قوم موسى ﴿ اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال : إنكم قوم تجهلون ﴾ (١)
إنها السنن ، سنن من كان قبلكم ، (٢) وفى رواية لتركبن سنن من قبلكم)
والحديث يدل على أن الذين قالوا ذلك كانوا حديثى عهد بشرك ، ولكنهم قد دخلوا فى الإسلام ، وقبل منهم الرسول ــ ﷺ ــ إسلامهم ، وصحبهم معه لقتال عدوه على ماهم عليه .

فلو كان الإسلام لايقبل إلا ممن فهم معنى لاإله إلا الله على الوجه الذى يقول به المكفرون لما قبل رسول الله من هؤلاء إسلامهم ولما أخرجهم معه لقتال المشركين ، لأنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ لا يستعين بالمشركين ، ولكان لزاما أن يقيهم فى مكة حتى يتعلموا معنى التوحيد الصحيح ، بل كان لابد أن يعلمهم ذلك قبل أن يخرج بهم لأن تأخير تعليمهم رضا بكفرهم تلك الفترة التى سيبقون فيها على شركهم ، وحدوث ذلك مستحيل فى حق رسول الله ــ ﷺ ــ .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٣٨

(٢) رواه الترمذى

دل هذا على أن النطق بالشهادتين كاف فى ثبوت صفة الإيمان لمنْ ينطق بهما ، ولانتهمه فى عقيدته ، ولانختبره لنتثبت من صحة اعتقاده ، فإذا ظهر انحرافه ، أو ثبت وجود خلل فى عقيدته وجب على العلماء تعليمه ، وتوضيح الحق له حتى تقوم عليه الحجة ، فإن أصر على انحرافه فهو كافر لايقبل الله منه صرفا ولاعدلا .

ويؤيد هذا ماجاء فى صحيح البخارى أن الربِّيع بنت معوذ بن عفراء قالت : جاء النبى ـــ ﷺ ـــ يدخل حين بنى على ، فجلس على فراشى كمجلسك منى ، فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف ويندبن من قتل من آبائى يوم بدر ، إذ قالت إحداهن : وفينا نبى يعلم مافى غد فقال ـــ ﷺ ـــ : (دعى هذه وقولى بالذى كنت تقولين) (١) وفى رواية (لايعلم فى غد إلا الله) (٢)

إن النبى ـــ ﷺ ـــ سمع من الجوارى وهن ينشدن ويغنين ، حتى قالت إحداهن : وفنيا نبى يعلم مافى غد .

إن تلك الكلمة لو قالها إنسان وهو يعلم معناها قاصدا ما يقول لكان مشركا ، لأنه لايعلم الغيب إلا الله ، فمن وصف إنسانا مهما كان نبيا أو صالحا أو وليا بتلك الصفة فقد أشرك مع الله عبدا من عباده .

ونحن نلاحظ أن الجارية قد قالتها ، وسمع الرسول ـــ ﷺ ـــ فعلم من كلامها أنها تحتاج إلى تصحيح عقيدتها ، فوجهها نحو الصواب بقوله : (لايعلم مافى غد الا الله)

وهذه الحادثة كانت بعد غزوة بدر ، أى بعد أكثر من عامين من هجرة الرسول ـــ ﷺ ـــ إلى المدينة ، وهو مقيم بين أصحابه فيها ، يعلمهم ويفقههم ، ويغرس فى قلوبهم حقيقة الإيمان ، ومع ذلك فقد وجد فى

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه بن ماجه .

المسلمين من يقول : إن النبى يعلم الغيب ، ولم يتهمها الرسول بالشرك بل علمها ، وصحح اعتقادها ، فمتى كانت تلك الجارية مسلمة ؟ أقبل أن تقول ماقالت أم بعد أن صحح لها الرسول خطأها ؟؟

لايشك أحد أنها مسلمة قبل أن تقول ومستمرة على إسلامها بعد أن وجهها الرسول ــ ﷺ ــ لأنه لم يتهمها بالشرك مع عظم الكلمة التى قالتها ، ولم يأمرها بتجديد إيمانها بالنطق بالشهادتين بل نصحها فى رفق الأب الشفيق ، وتوجيه المعلم الرحيم فقال : (دعى هذه وقولى بالذى كنت تقولين) أو بقوله : (لايعلم مافى غد إلا الله)

وإذا كان الأمر كذلك فكيف تركها الرسول على ماتعتقده حتى ترجمت عنه بتلك الكلمة ؟

لاجواب لذلك إلا أن الرسول ــ ﷺ ــ كان يكتفى من كل من يأتيه مسلما بالنطق بالشهادتين حتى يظهر منه خلاف ذلك فيوضح له ماخفى عليه ، ويعلمه مايجهله .

ونظير ذلك مارواه الطبرانى فى الأوسط عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أن النبى ــ ﷺ ــ مر بنساء من الأنصار فى عرس لهن ، وهن يغنين :

وأهدى لها كبشا تنحنح فى المربد ∴ وزوجك فى البادى وتعلم مافى غد

فقال ــ عليه الصلاة والسلام : (لايعلم مافى غد إلا الله)[1]

إذن المسألة ليست فى جارية صغيرة كما يدعى بعض الناس ، ولكنها كما يبدو كانت عند بعض الكبيرات فالحديث هنا صرح بأن اللاتى تغنين نسوة من الأنصار ، وقد عاملهن الرسول ــ ﷺ ــ كما عامل الجارية ، فلم يتهمهن بالشرك ، بل علمهن مايجب عليهن اعتقاده .

---

(١) رواه الطبرانى بإسناد حسن

وإذا صح لمتأول أن يتأول هذه أو تلك فهذه حادثة لاتقبل التأويل مهما كانت براعة المتأولين ، روى الطبرى عند تفسير قوله ــ تعالى ــ : ﴿ ولاتقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا ﴾ (١)

قال : بعث رسول الله ــ ﷺ ــ سرية عليها أسامة بن زيد إلى بنى ضمرة ، فلقوا رجلا منهم يدعى مرداس بن نهيك معه غنيمة له وجمل أحمر ، فلما رآهم آوى إلى كهف جبل ، واتبعه أسامة ، فلما بلغ مرداس الكهف ، وضع فيه غنمه ، ثم أقبل إليهم ، فقال :

السلام عليكم ، أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فشد عليه أسامة فقتله من أجل جمله وغنمه .

وبلغ الخبر رسول الله ــ ﷺ ــ فقال لأسامة : كيف أنت ولا إله إلا الله ؟

قال أسامة : يارسول الله ، إنما قالها متعوذا ، تعوذ بها .

فقال ــ ﷺ ــ: هلا شققت عن قلبه فتنظر إليه ؟

كذلك روى عند تفسير قوله ــ تعالى ــ : ﴿ وماكان لمؤمن أن يَقْتُلَ مؤمناً إلا خطأً ﴾ (٢)

قال : نزل هذا فى رجل قتله أبو الدرداء ، كانوا فى سرية فعدل أبو الدرداء إلى شعب يريد حاجة له ، فوجد رجلا من القوم فى غنم له ، فحمل عليه بالسيف ، فقال الرجل : لا إله إلا الله

فضربه أبو الدرداء ثم جاء بغنمه إلى القوم ، ثم وجد فى نفسه شيئا فأتى النبى ــ ﷺ ــ فذكر ذلك له .

قال ــ ﷺ ــ : ألا شققت عن قلبه ؟

قال أبو الدرداء : ماعسيت أجد ، هل هو يارسول الله إلا دم أو ماء ؟

قال ــ ﷺ ــ : فقد أخبرك بلسانه فلم تصدقه .

---

(١) سورة النساء الآية ٩٤ .

(٢) سورة النساء الآية ٩٢ .

قال : فكيف بى يارسول الله ؟
قال : فكيف بلا إله إلا الله ؟
قال : فكيف بى يارسول الله ؟
قال : فكيف بلا إله إلا الله ؟

قال أبو الدرداء : حتى تمنيت أن يكون ذلك مبتدأ إسلامى .

ونحن نلاحظ أن أسامة — رضى الله عنه — شك فى الرجل ، وظن أن قوله : أشهد ألا إله إلا الله وأن محمد رسول الله تقية ، وأنه إنما قالها خوفا من السيف ، ولكن الرسول رفض منه هذا التفسير وقال : هلا شققت عن قلبه فتنظر إليه ؟

وأبو الدرداء — رضى الله عنه — يقول كما قال أسامة ، والرسول — ﷺ — لايقبل منه كما لم يقبل من أسامة ، ويقول له : (فقد أخبرك بلسانه فلم تصدق) وليس لهذه الجملة من معنى سوى أن النطق بالشهادتين كاف لإثبات صفة الايمان لمن نطق بهما وقد أثبت القرآن الكريم صفة الإيمان لمن تلفظ بالشهادتين فى هاتين الحادثتين ، ففى الحادثة الأولى يقول — جل شأنه — ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا ﴾ [١] وفى الثانية يقول — سبحانه — : ﴿ وماكان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ﴾ [٢]

هذه صور من المجتمع الإسلامى فى عصر رسول الله — ﷺ — نرى فيها مايدل على أن بعض المسلمين كانوا يجهلون أمورا تتعلق بالعقيدة ، وكانوا يلتقون برسول الله — ﷺ — وهم على حالهم وليس لدينا مايثبت أن الرسول قد علمهم كل مايتصل بالعقيدة قبل دخولهم الإسلام أو عند دخولهم فيه ، إذ لو حصل ذلك ماخفى على الصحابة ، ولتحدثوا به كما تحدثوا بماهو أقل منه منزلة عند المسلمين ، ولما لم يصل إلينا ذلك عن طريق موثوق علمنا أن الرسول

---

(١) سورة النساء الآية ٩٤ .

(٢) سورة النساء آية ٩٢

ـ ﷺ ـ كان يرضى ممن جاءه مسلما بالتلفظ بالشهادتين وإن لم يتفقه فى كل مايتصل بأمور العقيدة .

لهذا رأينا بعض مسلمة الفتح يقولون : (اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط) .

وسمعنا المغنيات فى المدينة ، وفى حضرة الرسول ـ ﷺ ـ يقلن إن الرسول يعلم الغيب ، وكان ذلك فى عرس ، ولابد أن يكون فى العرس عدد كبير من الحاضرات ، ولم نسمع أن إحداهن أنكرت ما سمعت ، ولكن الرسول وحده هو الذى أنكر ذلك ممايدل على أن الحاضرات كن يعتقدن ماتعتقده المغنيات ، أو على الأقل يجهلن أن الذى يعلم الغيب هو الله وحده .

ولو أن الذين طلبوا من الرسول أن يجعل لهم ذات أنواط ، ولو أن هؤلاء المغنيات اللاتى كن يعتقدن أن الرسول يعلم مافى غد . لو أن هؤلاء وأولئك كانوا فى عصرنا هذا لوجدوا من المسلمين من يكفرهم ويخرجهم عن الإسلام ولكن الرسول ـ ﷺ ـ لم يكفرهم بل علمهم لأنهم كانوا يجهلون ذلك .

ولو أن الرسول ـ ﷺ ـ سبق له أن علمهم ذلك كله حتى فقهوه ، ثم خرجوا عليه ، واعتقدوا خلاف ماعلمهم لاستحقوا أن يرموا بالشرك ، وأن يوصفوا بالتمرد على عقيدة المسلمين .

ونحن قد شاهدنا أن الرسول قبل من ضمام بن ثعلبة النطق بالشهاديتن واكتفى به فعلمه فرائض الإسلام .

كما شاهدنا أن الرسول عاتب أسامة وأبا الدرداء لأنهما قتلا رجلين شهدا أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ، وقال لهما : فكيف بلا إله إلا الله ؟

نفهم من هذا أنه لايجوز لمسلم أن يكفر من نطق بالشهادتين إلا إذا ثبت كفره بمكفر منصوص عليه بنص صريح صحيح ، كذلك لا يجوز أن نتهمه فى عقيدته حتى يبدو منه مايدل على انحراف فى العقيدة ، ولانسأله على جهة

التثبت من صحة عقيدته إلا إذا ظهر منه مايدل على خلل فيها ، ولنا أن نترك الناس على ظاهرهم مادامو ملتزمين بفرائض الإسلام وأصوله .

تلك هى عقيدتنا ، وهى عقيدة السلف الصالح أهل السنة والجماعة ، آمنا بها ، وسنظل متمسكين بها حتى نلقى الله ــ عزوجل ــ.

ولكن ماأثر هذه العقيدة فى بناء المجتمع الإسلامى ؟

ذلكم هو السؤال الذى لابد أن يطرح هنا ، لأننا بصدد الحديث عن قواعد البناء فى المجتمع الإسلامى ، ولأننا قلنا إن العقيدة هى الأساس الأول فى ذلك البناء الشامخ .

ولبيان ذلك أقول : إن أثر العقيدة فى بناء المجتمع يتلخص فيما يأتى :ــ

١ ــ وحدة الفكر :

إن وحدة الفكر من أهم وسائل توحيد الاتجاه لأن الجماعة التى تفكر بطريقة واحدة ، وتوجه تفكيرها عقيدة واحدة لابد أن تكون غايتها واحدة ، والفكر هو أهم جوانب الإنسان ، فالإنسان ليس إنسانا بجسمه ، ولا هو إنسان بهيئته وشكله ، ولكنه فى الحقيقة إنسان بعقله وفكره ، وحاجات الجسم كلها حاجات مادية تفنى بمجرد استعمالها وتناولها ، ومتطلبات الهيئة والشكل كلها أدوات زينة وتجميل ، وهى الأخرى لايقوِّم بها الإنسان التقويم الحقيقى ولكن حاجات العقل ومتطلبات الفكر هى تلك الحقائق الخالدة التى تعطى الإنسان قيمته ومنزلته بين جميع المخلوقات .

والله ــ عز وجل ــ قد كرم الإنسان ، واصطفاه من بين مخلوقاته ليختار من بينه أنبياءه ورسله ، وليس ذلك إلا لما أهله له من الاستقامة فى خَلقه وخُلقه ، والاستعداد للتلقى عنه ــ جل جلاله ــ مايوحيه من الشريعة التى يرسل بها رسله إلى عباده .

ويقول الله ــ تبارك وتعالى ــ : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهُم فى البر

والبحرِ ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾(١) وعلماء التفسير يرون أن هذا التكريم ، وذلك التفضيل ليس إلا بالعقل الذى هو آلة التفكير فى الإنسان .

والمعلوم أن العقيدة تخاطب فى الناس عقولهم وقلوبهم ، ومن المعلوم كذلك أنها تسوى فى ذلك بين الناس جميعا ، فلا تخاطب الخاصة بأسلوب ، وتخاطب العامة بأسلوب آخر ، لا ولكنها تخاطب الجميع بأسلوب واحد ، لأنها ليست مبادىء فلسفية بل هى عقيدة إلهية ، وهى كما جاء بها رسل الله أجمعون بسيطة لاتعقيد فيها ، ولاتخليط ، متناسبة مع الفطرة البشرية التى فطر الله الناس عليها .

نعم إن أسلوب الإقناع هو الذى يختلف بحسب اختلاف طاقات الناس واستعدادهم ، ولكن التكليف بالعقيدة واحد مع جميع المطالبين بالإيمان بها .

وهذا القدر من التكليف كفيل بأن يوحد تفكير المؤمنين به ، لأنه يوجه الجميع إلى غاية واحدة ، فربهم واحد ، ونبيهم واحد ، وقبلتهم واحدة وأسلوبهم فى الحياة واحد .

إن وحدة الفكر فى المجتمع تعطى انطباعاً واضحاً عن وحدة الهدف الذى يسعى لتحقيقه ، كما أنها تظهر المجتمع فى صورة لاتضارب بين أفرادها ولااختلاف ، وتبرزه فى حقيقة الأمة الواحدة التى دعا إليها الإسلام فى قوله ــ تعالى ــ: ﴿ وإن هذه أمتكم أمةً واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ (٢)

ولست أقصد بوحدة الفكر المساواة بين أفراد الأمة فى درجة الإدراك والوعى ، ولاأقصد بها كذلك أن يكون المستوى الفكرى لأفراد الأمة واحداً لأن ذلك لايمكن أن يكون فى مجموعة صغيرة من الناس ، فكيف يتحقق فى

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٠

(٢) سورة المؤمنين الآية ٥٢ .

أمة بمجموعها ؟

ولكنى أقصد بها أن تكون المبادىء الأساسية للأمة فى صورة واضحة معلومة لدى كل فرد من أبنائها .

فالعقيدة الإسلامية حددت للناس غايتهم فى الحياة ، ووضحت لهم طريقة العمل للوصول إلى تلك الغاية ، ووضعت لهم الوسائل التى تكفل لهم سعادتهم في دنياهم وآخرتهم ، وهذا القدر ينبغى ألا يعزب عن عقل أى فرد ينتمى إلى الأمة الإسلامية لأن القرآن الكريم والسنة المطهرة قد وضحت ذلك فى أحاديث صحيحة ، وآيات محكمات .

فغاية المسلم في الحياة هى إرضاء الله ــ عز وجل ــ بطاعته وامتثال أمره ﴿ وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[1]

وطريقة العمل للوصول إلى تلك الغاية هى اتباع ماجاء به نبينا محمد ــ ﷺ ــ ﴿ قل إن كنتم تحبونَ الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾[2]

والوسائل التى تكفل للناس سعادتهم الدنيوية والأخروية هى مافرضه الله على الناس من أنواع العبادات والتشريعات سواء فى المعاملات والأخلاق والسلوك ﴿ قل هذه سبيلى ، أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ﴾[3]

هذا القدر من الفهم هو الذى يجب ألا يختلف عليه اثنان من المسلمين لأن إنكار شيء منه أو جحوده يؤدى بصاحبه إلى الخروج عن دائرة الدين الذي جاء به رسول الله ــ ﷺ ــ بوحى من رب العزة والجلال فالذى لايؤمن بأنه خلق أصلا لعبادة الله ، ويعتقد أنه وجد فى هذه الدنيا عبثا ، يأكل ويشرب ، ثم يقضي ولاشيء بعد ذلك كافر بإجماع المسلمين ، لأنه مكذب بآيات الله ،

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦ .

(٢) سورة آل عمران الآية ٣١ .

(٣) سورة يوسف الآية ١٠٨ .

ويوم القيامة يتمنى أن يعود إلى الدنيا ليؤمن بتلك العقيدة ، ويعمل على الطريقة السديدة ، ولكن لايسمع إلا قوله — تعالى — ﴿ اخسئوا فيها ولاتكلمون ﴾[1] ويقال لهم يومئذ تقريعا وتوبيخا : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون ﴾[1]

والذين لايتبعون النبى الأمى فيما جاء به ، ويتنكبون طريقه ، ويسلكون غير سبيله ، ويعتقدون أن ماهم عليه هو الحق ، وأنه خير مما جاء به النبى — ﷺ — من عند ربه كفار لايشك فى ذلك أحد من المؤمنين .

لأنهم بذلك يشاقون رسول الله — ﷺ — ويتهمونه فيما جاء به من الهدى ، ويتبعون غير سبيل المؤمنين ، مفضلين شرائع العباد على شريعة رب العباد .

وذلك كله كاف فى تكفير من يؤمن به ، ويعتقده ، وفى هؤلاء يقول الله — تبارك وتعالى — : ﴿ ومن يشاقق الرسولَ من بعدِ ماتبينَ له الهُدى ، ويَتبع غير سبيلِ المؤمنينَ ، نُوله ماتَولى . ونُصْلِهِ جهنمَ وساءت مصيرا ﴾ [2]

والذين يعتقدون أنهم يستطيعون أن يرسموا لأنفسهم طريق السعادة من غير حاجة إلى موافقة طريقتهم لطريقة الرسول ، وينكرون مافرض الله على عباده ، ويدعون أن الله رب قلوب ونوايا ، ولاحاجة مطلقا للالتزام بما شرع مادام قلبك سليما ، ونيتك حسنة ، فهؤلاء كأسلافهم فى الضلال والإسفاف والكفر .

لأنهم أعطوا أنفسهم حق التشريع ، ونصبوا أنفسهم أربابا من دون الله ، وشرعوا لأتباعهم مالم يأذن به الله ، وذلكم هو عين الكفر والضلال فالأمة مجمعة على أن كل عبادة ليست على نهج رسول الله — ﷺ — فهى مردودة

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١٠٨ ، ١١٥

(٢) سورة النساء الآية ١١٥

على صاحبها ، غير مقبولة ممن يفعلها فالرسول ــ ﷺ ــ : يقول : (من أحدث فى أمرنا هذا ماليس منه فهو رد) (١)

وفى هؤلاء وأمثالهم نسوق قول الله ــ عز وجل ــ : ﴿ أم لهم شركاءُ شَرَعُوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ، ولولا كلمةُ الفصلِ لقُضى بينهم ، وإنَّ الظالمين لَهُمْ عذاب أليم ﴾ (٢)

إن هذا القدر من الفهم هو الذى يجب أن يتحد فيه فكر المسلمين أجمعين ، ومازاد على ذلك من التعمق فى الفروع والبحث فى الأمور التخصيصية يكفى أن يبرز فيه فريق ممن يجيدون البحث ويتقنون النظر .

لأن الأمة لاتستغنى عن المتخصصين ، ولاتستطيع أن تقوم بوظيفتها كاملة مالم تستكمل كل حاجتها من أنواع العلوم والفنون حتى لاتمديدها إلى غيرها ، ولاتشعر بالضعف والحاجة إلى أعدائها ولهذا يقول الفقهاء : إن كل علم تحتاج إليه الأمة يكون طلبه فرض كفاية إن قام به بعضهم سقط الإثم عن الباقين ، وإلا أثموا جميعا .

٢ ــ المحبة :

إن العقيدة تؤلف بين القلوب ، وتشد المؤمنين بها بعضهم إلى بعض ، فتجعلهم يداً واحدة ، وتعلمهم كيف يضحى الفرد فى سبيل الجماعة ، وكيف يقدم حاجة أخيه على حاجته .

والمحبة الناشئة عن العقيدة لاتربط الناس فيها عوامل مادية ، ولاتؤلف بينهم روابط أسرية ، ولاتشد بعضهم إلى بعض علاقة تجارية أو أواصر منفعية ، ولكنها تربط القلوب ، وتقوى العلاقات على أسس منبثقة من أصول هذه العقيدة .

---

(١) رواه أبو داود .

(٢) مودة الشورى الآية ٢١ .

إن الأواصر المادية تفنى بفناء أسبابها ، فتنقضى الروابط الأسرية متى انحل العقد الذى يربط الناس ببعضهم ، وتنتهى العلاقات التجارية بانتهاء الشركة أو حدوث خلاف بين الأطراف المعنية ، وتزول الأواصر المنفعية متى استنفذ كل منتفع غرضه من صاحبه .

أما العلاقات الروحية التى تشد المؤمنين ، فإنها تزداد وتقوى بتعمق العقيدة فى القلوب ، ولايخشى عليها إذا انفصم عقد نكاح بين أفرادها ، ولاتتعرض لهزات نفسية إذا اختلف المتمتعون بها لأسباب تجارية ، ولاتضعف وتفتر إذا انتهت المصالح المنفعية ذلك لأن الجانب الروحى فى الإنسان متى استقر عنده فإنه يفوق كل الجوانب الإنسانية ، ويستطيع تذليل العقبات التى تواجه صاحبه بالتغلب عليها حيث يكون تعلقه بالملأ الأعلى أقوى من تعلقه بكل الجوانب المادية ، بل إنه ليزداد ويقوى كلما أمعن الإنسان فيه، لأنه حينئذ يعرف قيمته الحقيقية ، ويلمس أنه أعز وأغلى من أن يستبدل به المصالح المادية ، والمنافع الدنيوية مهما بلغت قيمتها ، ومهما كانت منزلتها .

لذلك فهو يضحى بكل متع الحياة ليستمتع بلحظة قرب مع الله ، وتهون عليه الدنيا بكل ملذاتها لتحظى نفسه بساعة رضى عند ربها .

وصاحب هذه الطاقات الروحية العالية يعلم أن الروابط العلوية هى السبيل إلى مرضاة الله — عز وجل — وهى الطريق إلى جناته التى أعدها لعباده المتقين ، والجنة هى الأمل الذى يعيش من أجله المؤمنون ، فلماذا إذن تنفصم عرى المحبة بين المؤمنين من أجل غرض من أغراض الدنيا مهما غلا ثمنه وعزت قيمته ؟

إن هذا النوع من المحبة هو جزء لايتجزأ من حقيقة الإيمان ، وهو الذى لايتم إيمان المؤمن إلا به ، بل هو الذى قال فيه الرسول — ﷺ — (لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه) [١]

---

(١) رواه أحمد فى المسند .

إن العقيدة التى نؤمن بها تجعل المحبة بين المؤمنين علامة مميزة للإيمان الذى تدعو إليه ، فمن تقطعت أواصر المحبة بينه وبين إخوانه المؤمنين فعليه أن يفتش عن جانب الضعف الذى سبب له تلك القطيعة ، وعليه أن يسعى جاهدا لمعالجة ذلك الضعف الذى تعرض له فى إيمانه حتى يستكمل الإيمان .

وكما أن الحب فى الله علامة مميزة تدل على استكمال الإيمان فإن بغض الكفرة المارقين ، والعصاة المصرين هى كذلك علامة دالة على كمال الإيمان .

لأن المؤمن لايوالى إلا مؤمنا ، ولايبذل حبه ومؤاخاته إلا لإخوانه من أهل عقيدته ، وذلك يقتضى أن يبغض الكفرة المعاندين ، والفسقة المجاهرين .

وفى هذا المعنى السامى يقول الرسول ـ ﷺ ـ : (من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان)[1]

إن مصادقة أعداء الدين بقصد هدايتهم والأخذ بأيديهم إلى طريق الخير والإصلاح أمر لابأس به ، بل هو واجب إذا علم الإنسان أن فى مصادقتهم هداية لهم ، أما إذا رأى المؤمن منهم عنادا وإصرارا ، ووجد منهم استهزاء واستكبارا فإن الواجب تركهم وإعلان العداوة لهم ، وإظهار بغضهم فى كل مجلس جلس فيه معهم ليعلن براءته منهم ؛ وينفى التهمة التى علقت به من جراء صداقتهم .

والقرآن الكريم قد أعلن ذلك فى غير موضع حين ينهى عن موالاة الآباء والإخوة بعد تقديمهم الكفر على الايمان ، يقول ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءَكُم وإخوانَكُم أولياءَ إن استحبوا الكفر على الإيمان ﴾[2]

ويندد بالذين يتوددون للمحادين لله ورسوله مهما كانت نسبة قرابتهم ، ويعتبرهم بهذه المودة غير مؤمنين ، فيقول ـ سبحانه ـ : ﴿ لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حَآدَّ الله ورسولَهُ ولو كانوا آباءَهُم أو

(١) رواه أبو داود

(٢)سورة التوبة الآية ٢٣

أبناءَهُم أو إخوانَهُم أو عشيرتَهُم ﴾[1]

ثم تأتى آية المفاصلة ، فتضع كل متاع الحياة وزينتها ، وكل ما يعتز الإنسانَ بالانتساب إليه فى كفة ، وتضع حب الله ورسوله فى الكفة الأخرى ، وتهدد الذين يقدمون حب أى شيء على حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله ، وذلك حيث يقول ــ جل شأنه : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومَسَاكِنُ ترضونَها أحبَ إليكُم من الله ورسولِهِ وجهادٍ فى سبيلِهِ فتربَصُوا حتى يأتِى الله بأمره والله لايهدى القومَ الفاسقين .﴾ [2]

لهذا لاينبغى للمؤمن أن يستمر فى مصادقة الكافرين مالم يجد منهم ميلاً حقيقياً إلى الإيمان ، بل يجب عليه أن يمنح حبه لإخوانه ، وأن يقطع على الفور كل علاقة بينه وبين الكافرين بحيث لاتبقى إلا العلاقات التى أباحها الإسلام كعلاقات الجيرة والأبوة والأمومة ، وبشرط ألايؤثر ذلك على تعاطفه والتحامه مع المجتمع الإسلامى الذى يعيش فيه .

إن المحبة القائمة على أساس عقدى هى المحبة الدائمة التى لاتنقطع ولها أثرها فى المجتمع حيث تشد أفراده بعضهم إلى بعض فهى لهذا لبنة قوية ، ودعامة متينة من دعائم المجتمع الإسلامى ، ومن أجل هذا كان ثوابها عظيما ، وأجرها كبيرا .

جاء فى الحديث الصحيح أن رجلين تحابا فى الله على غير أرحام بينهما وذهب أحدهما ليزور الآخر فى قرية نائية فرصد الله له ملكا فى الطريق ، فلما مربه سأله عن وجهته .

فأخبره أنه ذاهب لزيارة أخ له فى الله .

---

(١) سورة المجادلة الآية ٢٢ .

(٢)سورة التوبة الآية ٢٤ .

فقال له الملك : أبينكمانسب ؟

قال : لا .

قال : أبينكما تجارة ؟

قال : لا .

قال : ففيم ذهبت تزوره ؟

قال : أحببته فى الله ، وذهبت لأزوره فى الله .

قال : ياهذا ، إنى رسول الله إليكما ، جئت أخبركما بأن الله قد غفر لكما بما تحاببتما فيه .(١)

٣ ــ التعاون :

التعاون الصادق الذى يتم بين جماعة من الناس يكون نابعا من حقيقة آمن بها المتعاونون ، سواء كانت تلك الحقيقة صحيحة فى أعماق الناس أم فاسدة فإنها بلا جدال تكون هى المحرك الرئيسى لذلك التعاون لأنهم يشعرون بقيمة التعاون ، وما يحققه لهم من الفائدة .

والفائدة الحاصلة من التعاون بين الناس ملموسة لكل من يتعاون مع إخوانه لايستطيع أحد إنكارها غير أن تلك الفائدة تختلف بحسب الحقيقة التى بنيت عليها ، فإذا كانت مبنية على عقيدة سليمة ، وأساس صحيح فإنها تكون فائدة عامة بمعنى أنها لاتقتصر على ناحية واحدة فى الإنسان ، فلا تكون فائدة لجيبه فقط ، ولاتكون فائدة لقلبه فقط ، بل تكون لجيبه وقلبه معا ، وتلك هى الفائدة التى يستمتع بها الإنسان من غير مضرة تلحقه .

أما إذا كانت الفائدة صادرة عن شهوات عاجلة ، وأمانى باطلة فإنها قد تحقق لصاحبها ذلك ، وقد لاتحققه ، وحتى لو حققته فإن مشكلاتها ، ومايترتب عليها من الآلام والمتاعب يكون أكبر من تلك الفائدة مهما عظمت . ذلك لأن متاع الحياة الدنيا ولو اجتمع لإنسان ما لايستطيع أن يزيل عن نفسه

---

(١) رواه مسلم والحديث هنا مروى بالمعنى .

هما لحقه ، أو يفرج عنه كربا ألم به ، بل قد يكون ذلك المتاع هو السبب الحقيقى لزيادة الهم وتفاقم الكرب لأن حرص الإنسان على متع الحياة ولذائذها يجعله يفرق ويتحسر كلما شعر بقرب انتهاء مايشيع فى نفسه من البهجة والسرور وأى متع الحياة لايزول ؟

لهذا فإن الإسلام قد جعل التعاون بين المسلمين أو بين المسلمين وغيرهم قائما على أساس من الباقيات الصالحات ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾[١] ونهى عن التعاون القائم على القطيعة والاعتداء ﴿ ولاتعاونوا على الإثم والعدوان ﴾[١] والعقيدة الإسلامية تجعل التعاون بين المسلمين سمة مميزة للمؤمنين ، وإلى هذا يشير الحديث الشريف « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »[٢] فالتعاون بين المسلمين هو لحمة الصلة التى تربط بين أفراد المجتمع فلا تدع واحداً منهم يشذ ، أو يترك كلبنة لم تشد إلى أختها فتصبح معرضة فى أية لحظة للسقوط والانهيار .

إن المسلم لايستطيع أن يعيش بغير إخوانه ، لأنهم هم الذين يسددونه إذا انحرف ، ويقومونه إذا اعوج ، ويقفون إلى جواره إذا نزلت به نازلة ، ومن أجل هذا فرض الإسلام التعاون على كافة المسلمين بغير استثناء ، فليس بمسلم على الحقيقة من يفضل العيش فى مجتمع كافر على العيش فى مجتمع مسلم ، وليس بمسلم كامل الإسلام من يرى التعاون مع غير المسلمين أولى منه معهم لما يجره عليه من النفع المادى القريب .

نعم ، قد تكون المجتمعات غير الإسلامية أكثر للنفس إراحة لما فيها من التنظيم واستكمال الإمكانات التى تسهل سبل العيش ، وتجعل الحياة أكثر رغدا ، وأسهل تناولا ، وأرفق بالعيش من المجتمعات الإسلامية اليوم ، ولكننا إذا تركنا مجتمعاتنا التماسا للراحة ، وطلباً للحياة الرغدة واستسهالا لسبل

---

(١) سورة المائدة الآية ٢ .

(٢) متفق عليه .

العيش فمن ذا الذى يصلح هذه المجتمعات ؟

إن مجتمعاتنا قد أصيبت بتلك النكسة من رجال فرطوا فى عقيدتهم ، وأهملوا فى واجباتهم ، والتمسوا الترف وزخارف الحياة بقيمهم ومبادئهم والذين يسلكون هذا الدرب ليسوا إلا امتداداً لأولئك الذين نكبت مجتمعاتهم بأيديهم ، وقضوا على حضارتهم بخسة نفوسهم ، وتفاهة تطلعاتهم .
إننا نستطيع أن نجعل مجتمعناقبلة يقصده الناس من كل مكان كما كان ذلك من قبل إذا تضافرت جهودنا للرفع من مستواه ، وصممنا على العودة إلى المنهاج الصحيح ، وصبرنا على مايواجهنا من المحن والشدائد ونحن فى طريق التصحيح .

إن إمكاناتنا المادية لاتقل عن إمكانات غيرنا بل تزيد ، وإن طموحنا لاسترجاع مجدنا التليد لايقف عند حد ، وإن زادنا الروحى الذى نتفوق به على غيرنا لاينفد ولايضعف ، بل يزداد توقدا واستثارة كلما أمعنا فيه وأخذنا به ، لأننا نستمد منه قوتنا المعنوية ، ونرجو به من الله ــ تعالى ــ النصر والفتح القريب .

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إن تكونوا تألمون فإنهم يألَمُونَ كما تألمون وتَرجُون من الله مالا يَرجُون ﴾ . (١)

ولكن هل معنى هذا أن نقاطع المجتمعات غير الإسلامية ولانتعامل معها ؟ لا ، إن الممنوع على المسلم أن يمنح هذه المجتمعات حبه ، وأن يعطيها ولاءه ، وأن يدافع عنها بيده أو بلسانه ، وليس من الممنوع أن نتعامل معها فيما يعود علينا بالنفع كالاستفادة من الخبرات العلمية التى لم نصل إليها بعد ، والتعاون فيما لانستطيع الاستقلال فيه بأنفسنا ، أو الاستعانه بمالديهم من أشياء نحن فى حاجة إليها ولانستطيع شراءها بأموالنا .

---

(١) سورة النساء الآية ١٠٤

وهنا يطرح سؤال نسمعه كثيرا من الشباب المؤمن المتحمس ينبغى أن نبسط فيه الكلام لعل النفوس تهدأ والقلوب تطمئن ، ذلكم السؤال هو : هل يجوز التعاون مع غير المسلمين أو مع المسلمين غير الملتزمين بتعاليم الدين فى الأعمال العامة التى تهم المسلمين كالصناعة والتجارة ونحوهما ؟

ولتوضيح ذلك أقول : إن الذين يعيشون معنا أو يجاوروننا من غير المسلمين نوعان : فريق منهما له أمان وذمة من المسلمين ، وليس بيننا وبينهم حرب ولانزاع ، وفريق معاند محارب ، وللإسلام من كل منهما موقف واضح لالبس فيه ولاغموض .

فأما المحاربون فليس لهم منا إلا السيف حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، أو يدخلوا فى الإسلام فيصبحوا إخوة لنا لهم مالنا من الحقوق وعليهم ماعلينا من الواجبات ، وهؤلاء فى حال كونهم محاربين لايجوز أن يكون بيننا وبينهم معاملات قط ، لأن المعاملات لاتكون متبادلة بين الناس إلا فى حالة توفر الثقة ، وضمان عدم المضرة ، والمحاربون على أية حال لايمكن أن تتوفر فيهم الثقة ، وكيف وهم يتمنون قتلنا والانتقام منا ، وزوال دولتنا ؟ ولايمكن كذلك أن نأمن مضرتهم لنا ، وكيف وهم لايحاربوننا إلا لإنزال أعظم المضرة بنا ، والقضاء على قيمنا ومبادئنا ؟

لهذا فإن القرآن الكريم ينهى عن موالاتهم والاتصال بهم ، والتعامل معهم ، ويعتبر من يفعل ذلك معهم من الظالمين ، يقول الله ــ تبارك وتعالى ــ : ﴿ إنما ينهَاكُم الله عن الذين قَاتلُوكُم فى الدين ، وأَخْرجُوكُم من دياركُم ، وظَاهَروا على إخراجكُم أن تَولَوْهُم ، ومن يتولَهُم فأولئك هم الظالمون ﴾[١]

وأما الذميون والمستأمنون والمعاهدون فأولئك لهم حقوق فرضها الإسلام بمالهم من العهد والذمة والأمان ، وهذه الحقوق تقتضى حسن مجاورتهم

(١) الممتحنة الآية ٩ .

وحسن معاملتهم ماداموا على عهدهم وأمانهم ، وفى هؤلاء يقول ـــ تبارك وتعالى ـــ ﴿ إلا الذين عاهدتُم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يُظَاهِروا عليكُم أحداً ، فأتِموُا إليهم عَهْدَهُم إلى مُدَّتهم إنَّ الله يحب المتقين ﴾ (١)

وهذا الصنف من غير المسلمين يجوز التعامل معهم ، والبيع والشراء لهم والاقتراض منهم وإقراضهم ، والاستعانة بما لديهم من الأشياء التى نحتاج إليها إلى غير ذلك من أنواع المعاملات المتعارف عليها بين الناس غير أننا لانعينهم على مسلم كما لانعين مسلما عليهم ، ولانقرهم على معاملات لايقرها الإسلام ، يقول ـــ تعالى ـــ فى حث المؤمنين الذين لم ينضموا إلى جماعة المسلمين بالهجرة إليهم : ﴿ وإن استنصروكُم فى الدين فعليكُم النَصرُ إلا على قوم بينكُم وبينهم ميثاق ﴾ (٢)

ونحن نلاحظ فى سيرة الرسول ـــ ﷺ ـــ مايؤيد ذلك ، فقد كان ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ يتعامل مع يهود المدينة ، وكان يقترض منهم حتى مات ـــ ﷺ ـــ ودرعه مرهونة عند يهودى

وفى غزوة الخندق استعار من يهود بنى قريظة آلات الحفر ـــ الفؤوس والمعاول والمكاتل ـــ واستعان بها المسلمون حتى أتموا حفر الخندق وإنى أعتقد أنه لو لم تكن تلك الآلات لما استطاع المسلمون حفر الخندق فى الفترة القصيرة التى حفر فيها ، فقد كان طوله حوالى ألفى متر وعرضه يترواح بين خمسة أمتار وستة أمتار ، وعمقه بين المترين ونصف المتر وبين ثلاثة أمتار ، وقد حفره المسلمون فى خمسة عشر يوماً على التحقيق وكان عدد الذين يحفرون تسعمائة رجل ، ويعاونهم فى الحفر بحمل التراب والحجارة ألفا رجل تقريباً . (٣)

---

(١) سورة التوبة الآية ٤ .

(٢) سورة التوبة الآية ٧٢

(٣) يراجع فى ذلك كتابنا موسوعة المدنية التاريخية القسم الثانى غزوة الخندق .

وفى غزوة خيبر عامل الرسول ــ ﷺ ــ يهودها حيث ترك لهم الأرض يزرعونها ، ويقومون على خدمتها مقابل نصف مايخرج منها من الزرع والثمار واستمروا على ذلك حتى أجلاهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فى خلافته .

ومعنى ذلك أنهم عملوا للرسول أربع سنوات وشهرين تقريبا ، ثم عملوا فى خلافة أبى بكر ــ رضى الله عنه ــ سنتين وأشهراً ، كذلك عملوا فى خلافة عمر ــ رضى الله عنه ــ إلى أن أجلاهم عن جزيرة العرب .

ونحن نرى هنا أن الرسول ــ ﷺ ــ لم يطرد يهود خيبر منها بعد فتحها وقد كان فى استطاعته ذلك لو أراد ، لأنهم كانوا مهزومين ، والمهزوم يخضع عادة لتصرف الغالب حيث لايستطيع أن يختار لنفسه مايحب ، ولكنا نلاحظ فى هذا التصرف نظرة عميقة لمصلحة المسلمين فلو أن الرسول أجلى يهود خيبر عنها ، وسلم الأرض التى استولى عليها للمسلمين يفلحونها ، لتعطلت بذلك قوة هائلة من جيش المسلمين ، فالأرض واسعة وتحتاج إلى عدد كبير من العاملين لاستثمارها واستغلال خيراتها ، ولو وفرنا لها العاملين لكان ذلك على حساب قوة المسلمين المقاتلة لأن المسلمين كانوا معبئين جميعا للغزو فى سبيل الله .

لهذا أبقى الرسول يهود خيبر على ماكانوا عليه قبل فتحها ، وكان من الممكن أن يستعملهم بالأجر اليومى ، ولكن ذلك قد يؤدى إلى الإهمال الذى يؤول إلى بوار الأرض وخرابها ، فلم يكن من الحكمة تشغيلهم بتلك الطريقة ، واقتضى ذلك أن يعاملهم الرسول ــ ﷺ ــ كشركاء ، لهم نصف مايخرج من الأرض قل أو كثر ، وذلك يدفع العامل إلى بذل أقصى الجهد لاستخراج أكثر مايمكن استخراجه من غلة الأرض لأنه سيأخذ نصف مايخرج منها .

وعلى هذا القياس لامانع أن يتعاون المسلمون مع غير المسلمين فى الصناعة والتجارة وكل عمل يعود على المسلمين بالنفع والفائدة ، ولاسيما إذا كان

المسلمون سيستفيدون من وراء توظيف غير المسلمين أو مشاركتهم فوائد لايمكنهم الحصول عليها إذا استقلوا هم بتشغيل الأعمال وإدارتها .

ولدينا نوع آخر من تعامل الرسول ــ ﷺ ــ مع غير المسلمين وهو استئجار الرسول لبعض المشركين ليدلوه على الطريق كما حدث فى الهجرة حيث استأجر عبد الله بن أريقط ــ وكان على دين قومه ــ ليسلك به وبصاحبه طريقا غير مألوف حتى لايعثر عليه أعداؤه ، ولكى يصل إلى المدينة بسلامة الله ورعايته .

كذلك استأجر رجلاً من خزاعة فى غزوة حمراء الأسد ليخذل المشركين بعد غزوة أحد ، وكان الرجل مشركا ، وقام الخزاعى بدوره خير قيام ، حين أخبر أبا سفيان بأن محمداً ﷺ قد أقبل بجيش عظيم لاقبل لهم به وأنه قد وصل إلى حمراء الأسد على بعد ستة عشر كيلو مترا من المدينة يريد الأخذ بثأر شهداء أحد .

حينئذ تخاذل المشركون ، وفكروا فى النجاة من المسلمين بعد أن كانوا قد عزموا على العودة لمهاجمة المدينة ، والقضاء على البقية الباقية من المسلمين فيها ، وحتى قال صفوان بن أمية : ياأبا سفيان ، ارجع بما أحرزت من نصر ، فإن القوم قد حربوا ، ولاأظن إلا أن يكون لهم قتال غير الذى كان بالأمس .

وهذا النوع من التعامل كما نرى فى غاية الخطورة ، إنه ليس شركة فى تجارة ولا إسهاما فى صناعة ، ولكنه يتعلق بأخطر أوضاع الأمة وأكثرها حساسية وهو أمنها ووضعها العسكرى الذى يعتبر لدى الأمم قديمها وحديثها من أهم الموضوعات التى يجب أن تحاط بالسرية التامة ، والكتمان الكامل .

لاشك أن الرسول ــ ﷺ ــ قد استعمل الذين استعملهم فى هذا المجال ، لأنه لايوجد أحد من المسلمين يغنى غناءهم فى ذلك ، فعبد الله بن أريقط كان هاديا خرِّيتاً كما وصفه المؤرخون وأهل السير ، والخزاعى كان رجلا مشركا على دين القوم ، فثقتهم فيه تكون أكثر من ثقتهم فى غيره ، وتصديقهم له يغلب

على تكذيبه ، لهذا كان الرجلان أكفأ من غيرهما فيما قاما به من الأعمال .

وإذا كان الرسول ـ ﷺ ـ قد تعامل مع المشركين فى أخطر أمور الأمة وأكثرها حساسية على مارأينا ، أفلا يكون ذلك مؤشرا لجواز التعامل معهم فيما هو دون ذلك من الأعمال التجارية والصناعية ونحوها ، وبخاصة إذا كان التعامل معهم يحقق للمسلمين مكاسب هم فى حاجة إليها .

إن إحراز الفوائد والمكاسب للمسلمين ينبغى أن يكون غاية يسعى المسلمون لتحقيقها ، ولو لم يتأت ذلك إلا بالتعامل مع غير المسلمين لكان على المسلمين أن يسعوا للتعامل معهم حتى يحققوا تلك الفوائد والمكاسب .

وإننا لنرى الرسول ـ ﷺ ـ فى غزوة حنين يقصد صفوان بن أمية ليقترض منه ما يعين به المسلمين على حرب عدوهم ، ويستعير منه أدرعا ورماحا وقسيا وسهاما ليقاتل بها عدوه ، ثم نرى من الرسول موقفا رائعا يدل على حسن معاملة المسلمين لغير المسلمين ، وذلك حين قال صفوان لرسول الله ـ ﷺ ـ : أغصبا أم عارية يامحمد ؟

فيقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ : (بل عارية ومضمونة)[1]

فالرسول هنا قد ضمن لصفوان وهو لايزال على الشرك كل ماأخذ منه ، ولو خسرها المسلمون لكان على الرسول أن يؤدى إليه ضمانها كما وعده .

إن الحرب لاتعرف العارية ولا الضمان ، ولغة الحرب التى يتعامل بها الناس لاتعرف للمهزوم حقوقاً ينبغى أن تراعى ، ولو أن الرسول ـ ﷺ ـ أخذ صفوان نفسه أسيراً ، وأخذ أمواله وكل مايملك غنيمة لما استطاع أن يمنع شيئاً من ذلك عن المسلمين ، ولكنه خلق الإسلام فى الحرب ، ومعاملة المسلمين للمستأمنين من أعدائهم .

وهكذا يكون التعاون فى المجتمع الإسلامى ليس مقصورا على المسلمين ،

(١) ابن هشام (٢ / ٤٤٠) تحقيق مصطفى السقا ورميلة .

بل هو بين المسلمين بعضهم وبعض ، وبين المسلمين وغيرهم ممن يعايشونهم ويتعاملون معهم ، لهذا لم ينهنا الله ـــ عز وجل ـــ عن برهم والعدل بينهم ، ولاشك أن من البر التعاون معهم على ماليس فيه إثم ولاقطيعة ، يقول الله ـــ تعالى ـــ : ﴿ لاينهاكُم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يُخرجُوكم من دياركُم أن تبروهم وتُقْسِطوا إليهم إنَّ الله يُحبُّ المقسطين ﴾ (١)

---

(١) سورة الممتحنة الآية ٨ .



الفصل الثانى
الاهتمام بالنشء

العناية بالنشء والاهتمام بتربيته على الأصول الإسلامية الصحيحة التى تجعل كل فرد فى المجتمع صورة واضحة للإسلام من حيث السلوك والمعاملة والسمات والأخلاق من أهم قواعد البناء فى المجتمع الإسلامى .

ولهذا فإن الإسلام لا يهتم بالنشء منذ وجوده على قيد الحياة فقط ولابعد أن يصير شابا يافعا فحسب ، بل يهتم به قبل أن يكون جنينا فى بطن أمه ، ويتمثل ذلك فى اختيار الزوجة التى ستكون وعاء لهذا الجنين ثم محضنا للطفل ثم موجها ورائدا للشاب .

فالرسول ـ ﷺ ـ يأمر من يريد الزواج أن يختار الزوجة ويحسن اختيار أم أولاده ، وذلك لأن الأمر أكبر من أن يكون مجرد عشرة زوجية يستمتع كل زوج فيها بزوجه ، ويعيش كل منهما لنفسه ، فنحن نعلم أن العرق دساس ، وأن الأم هى التى ستلقن الطفل الدروس الرئيسية فى حياته والتى سينشأ عليها وسيكون صورة طبق الأصل منها فى مستقبله .

من أجل ذلك كان لابد من اختيار الزوجة اختيارا دقيقا تتمثل فيه هذه الصورة المشرقة التى نتطلع إليها ، وفى هذا يقول الرسول ـ ﷺ ـ (تخيروا لنطفكم فانكحوا الأكفاء ، وأنكحوا إليهم) . [1]

وحين يأمرنا الرسول ـ ﷺ ـ باختيار الزوجة ، لايترك لنا حرية الاختيار

(١) رواه ابن ماجه والحاكم .

بحيث يختار كل رجل ماتشتهيه نفسه بغير قيود ، بل يضع لنا المواصفات التى ينبغى أن نتقيد بها عند الاختيار ، وذلك لأن النفس البشرية تهوى الجمال بلا قيود ، وتتطلع إلى المال بغير ضوابط ، وترغب فى النسب والجاه دون مراعاة لما قد يجره ذلك عليها من المشكلات .

والرسول ـــ ﷺ ـــ حين يضع المواصفات لايتجاهل تطلعات النفس ولارغباتها ، بل يعالج الأمر معالجة موضوعية فيقول : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولجمالها ولحسبها ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » (١)

فالإسلام وهو يعالج المشكلة يوضح الحقيقة فيذكر الأمور التى تنكح من أجلها المرأة بواقعية تتناسب مع ميول الإنسان ورغباته ، فيذكر المال كدافع من دوافع الزواج ، ولايتجاهل الجمال وهو رغبه للنفس تطلبها فى كل مجال ، كذلك لايتناسى النسب وهو مما تفتخر به النفوس وتعتز بالحصول عليه ، ثم بعد أن يقرر ذلك يذكر القيد الوحيد الذى يفرضه ويرغب فيه فاظفر بذات الدين

فالزوجة التى رشحها الإسلام للشاب المسلم هى ذات الدين ، فإذا اجتمع الدين وهو المرشح الذى يفضله الإسلام مع واحدة من المرغبات الأخر فهو خير لايعارض فيه الإسلام ، وكلما انضم مع الدين أكثر من مرغب فهو زيادة خير يجمعها الله لعبده الصالح الذى حرص على الدين أولا

أما أن يكون الجمال أو المال أو الحسب هو المرشح الأصلى ، ويكون الدين بعد ذلك شيئا ثانويا فذلكم هو الغبن الفاحش والخسران المبين الذى يلقى الإنسان بنفسه فيه

إن المرأة إذا فقدت الجمال الخلقى فجمالها الحقيقى فى إيمانها ، وإذا فقدت المال فحسن معاشرتها لزوجها خير من كنوز الدنيا وخزائنها ، وإذا فقدت الحسب فحسبها تقوى الله ، ولكنها إذا فقدت الدين فأى شىء يعوضها

---

(١) متفق عليه

عنه ؟

ومن أجل هذا يحذر الرسول ـ ﷺ ـ المؤمن أن تكون غايته من الزواج الجمال أو المال أو الحسب فقط ، لأن ذلك يؤدى إلى عواقب وخيمة بينها ـ ﷺ ـ بقوله : « لاتتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولاتزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل » (١)

فالمرأة الصالحة ذات الدين هى خير متاع هذه الحياة ، والصلاح لايتمثل فى كثرة الصلاة والصيام ، ولا فى الذكر وقراءة القرآن ، ولكنه يتمثل حقيقة فى قول الرسول ـ ﷺ ـ : « خير النساء التى تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا أمر ، ولاتخالفه في نفسها ولامالها بما يكره » (٢)

إن اهتمام الإسلام بموضوع الزواج ، ووضع الصفات التى على أساسها يختار الرجل زوجه ليس إلا من باب الاهتمام بالجيل الذى سيربى فى أحضان هؤلاء الأمهات ، لأن الزواج فى الإسلام ليس لمجرد المتعة كما ذكرت من قبل ، ولا لمجرد قضاء الوطر فقط ، وإنما هو إلى جوار ذلك وسيلة لحفظ النوع وتكثير النسل ، وهو كذلك أسلوب طاهر عفيف من أساليب تنمية المجتمع وتقوية الأواصر بين الأسر ، وفى هذا يقول جل جلاله : ﴿ نساؤكم حرثٌ لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ (٣)

فالآية الكريمة تخاطب فى الرجل عاطفة الأبوة فهو لايتزوج إلا من أجل النسل وإيجاد بيت سعيد يملأه الأطفال سعادة ومرحا ، فالزوجة هى ذلك الحقل الخصب الذى يضع فيه الزوج البذرة الصالحة ، وتكون منه الثمرة الطيبة ـ الأطفال ـ وذلكم هو شأن الإسلام فى موضوع الزواج .

---

(١) رواه ابن ماجة .

(٢) رواه النسائى .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٢٣ .

أما الذين لايقصدون من الزواج إلا الاستمتاع ، ولايريدون إلا قضاء الوطر ، فإنهم قد يجدون ذلك فى غير الزواج ، فهؤلاء لايهتمون بالزواج ، ولايكون فى برنامج حياتهم ، لما فيه من التبعات ، وتحمل المسئوليات .

إن الزواج فى الإسلام رباط متين يشد الزوجين بعضهما إلى بعض ؛ ويحملهما معا مسئولية بناء أسرة قوية تزيد بناء المجتمع صلابة ومتانه ، ولن يكون ذلك إلا بتحقق الصفات التى حث عليها الإسلام ، فإذا لم تتحقق كان الرباط واهيا ، وتتعرض الأسرة للتفكك والانهيار .

فإذا كان الزواج على النحو الذى سبق ، وحملت الأم الجنين فإن الإسلام يوالى عنايته به ، ويتابع مسيرته معه ليحقق له الرعاية الكاملة فى طوره الأول ويكون ذلك بعدم تكليف الأم بما لاتطيق حتى يعفيها من أداء بعض الفرائض التى قد تسبب إرهاقا لايستقر معه الجنين ، ويؤدى إلى الإسقاط ، وذلك كفريضة الصيام ، فقد قرر الفقهاء أن الحامل إذا خافت على الجنين الذى فى بطنها تفطر وتطعم عن كل يوم تفطره مسكيناً .

قال ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ فى قوله ـــ تعالى ـــ ﴿ وعلى الذين يطيقونه فديه ﴾ (١) كانت رخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة وهما يطيقان الصيام أن يفطروا ويطعما مكان كل يوم مسكيناً ، والحبلى والمرضع إذا خافتا ـــ يعنى على أولادهما ـــ أفطرتا وأطعمتا . (٢)

وكان ابن عباس يقول لأم ولد له حبلى : أنت بمنزلة الذى لا يطيقه ، فعليك الفداء ، ولاقضاء عليك . (٣)

وعبد الله بن عمر ـــ رضى الله عنهما ـــ كان يرى رأى ابن عباس ، وكان

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٤ .

(٢) رواه أبو داود .

(٣) رواه البزار .

يفتي بذلك من يستفتيه . روى الامام مالك والبيهقي عن نافع أن ابن عمر سئل عن المرأة الحامل إذا خافت على ولدها فقال : تفطر وتطعم مكان كل يوم مسكينا ـــ مدا من حنطه ـــ وهذا هو رأى جمهور علماء المسلمين يفتون به فى كل زمان ومكان .

ومن أجل الحفاظ على الجنين ورعايته يحرم الإسلام على الأم أن تتعمد إسقاط الجنين بغير عذر تقبله الشريعة ، كما يحرم ذلك على الأب ، فإذا جنى الأبوان على الجنين أو أحدهما يكون إثمهما عظيماً وذنبهما كبيراً ، أما إذا كان الجانى غير الأبوين فإن الإسلام يوجب عليه دية الجنين غرة ـــ عبداً أو أمة ـــ

وهكذا يرعى الإسلام الجنين فى بطن أمه ، ويحيطه بهذه الرعاية حتى يخرج إلى الحياة بشراً سوياً ، فإذا ولد الجنين ، ووضعت الأم ولدها كلفها الإسلام برعايته فعليها نظافته ، وعليها حمايته ، وعليها رضاعته ، وعلى الأب النفقة والاهتمام به ، وعليه أن يعق عنه ـــ أى يذبح عنه ذبيحة ـــ فى اليوم السابع من مولده فيتصدق بثلثها ، ويهدى ثلثها ، ويأكل ثلثها ، وعليه أن يختار له الأسماء الحسنة ، وألا يلطخ رأسه بدم العقيقة كما يفعل كثير من الجهلة ، لأنها عادة جاهلية مقيتة ، وفيها تقذير للطفل وتشويه لخلقه .

وإذا امتنعت الأم عن إرضاع ولدها ، فعلى الأب أن يستأجر المرضعة أو يعطيها الأجر الذى سيعطيه للمرضعة الأجنبية لكى ترضع ولدها ولا تتركه يهلك .

فإذا مرض الطفل أو تأذى بشيء فعلى الوالد معالجته حتى يزول مابه من المرض والأذى فقد سئل رسول الله ـــ ﷺ ـــ أفنتداوى ؟

قال : « نعم ، ياعباد الله تداووا ، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد ـــ الهرم ـــ » [1]

---

(١) رواه أحمد فى المسند .

وينتقل الطفل إلى مرحلة أخرى ، والإسلام معه يحيطه بالرعاية والتقويم ، فلا يكاد الطفل يعى ويدرك مايوجه إليه حتى يلزم أبويه أن يعلماه الأخلاق الفاضلة والشمائل الكاملة كالصدق والأمانة ، والوفاء والشجاعة ، وغير ذلك مما ينبغى أن يربى عليه الصبيان فى تلك الفترة من حيلتهم حتى تنطبع هذه الصفات فى قلوبهم ، وتصبح خلقا لازما لهم .

فعلى الأبوين فى تلك الفترة أن يكونا مثالا يحتذيه الطفل فى كل تصرفاتهم ، فلا يرى منهما إلا الفضائل ، ولايسمع إلا الصدق ، والإسلام فى تلك الفتره يعامل الطفل بحساسية مرهفة ، لأنه كالمرآة ينطبع فى خلقه كل مايراه أو يسمعه ، لهذا لما رأى الرسول ـــ ﷺ ـــ أما تنادى صبيا لها ، وتعده بأن تعطيه تمراً ، أخبرها بأنها إذا لم تعطه كتبت عليها كذبة .

عن عبد الله بن عامر ـــ رضى الله عنه ـــ قال : دعتنى أمى يوما ورسول الله قاعد فى بيتنا ، فقالت : ها تعال أعطك .

فقال لها رسول الله ﷺ : (ماأردت أن تعطيه) ؟ قالت : أردت أن أعطيه تمراً فقال لها ـــ ﷺ ـــ : « أما إنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة »[(١)]

وعن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قال لصبى هاك ، ثم لم يعطه فهى كذبة »[(٢)]

هكذا يحرص الإسلام على ألا يسمع الصبى إلا صدقا ، ولايمنى إلا حقاً حتى يشب على ذلك فيصبح عادة له وخلقا ، وقديما قال الشاعر :

وينشأ ناشيء الفتيان منا   على ماكان عوده أبوه

ومن الصفات التى يجب أن يعودها الصبى الشجاعة الأدبية ، لأنها تعينه على مواجهة المشكلات التى تعترضه ، وقد كان الصحابة ـــ رضوان الله عليهم ـــ يربون أولادهم على ذلك ، ويغرسونه فى قلوبهم وهم فى مقتبل أعمارهم فمن ذلك مافعله عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ مع ابنه عبد الله ، فقد كان

---

(١) رواه أبو داود .

(٢) رواه أحمد .

عبد الله جالسا مع الصحابة بين يدى رسول الله ، فسأل الرسول عن الشجرة التى لايسقط ورقها وشبهها بالمسلم . فلم يستطع الصحابة معرفتها ، وسألوا الرسول ــ ﷺ ــ عنها فقال : هى النخلة .

وكان ابن عمر قد وقع فى نفسه أنها النخلة ، ولكنه لم يصرح به لإدراكه أن فى الحضور من هو أكبر منه سنا ، ولكنه أخبر أباه بماوقع فى نفسه من أنها النخلة ، وقال : ولكننى استحييت لصغر سنى .

فقال عمر : لأن تكون قلتها أحبَّ إلى من أن يكون لى كذا وكذا [١]

وبهذا الأسلوب يشجع عمر ابنه على أن يتكلم بما فى نفسه بحضرة من هو أكبر منه سنا لأن الحياء والسكوت يضيع كثيرا من الفوائد ، ويقبر كثيراً من المواهب ، ويقتل الشجاعة الأدبية التى هى من أهم الصفات التى ينبغى أن يتحلى بها المؤمنون حتى يتعودوا النصح للمسلمين ، ويجرؤوا على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويكونوا بذلك أعضاء عاملين فى المجتمع الذى يعيشون فيه .

ومن وسائل غرس هذه الصفة فى الصبيان تشجيعهم ، وبث روح الرجولة فيهم ، ومن ذلك حضورهم مجالس الكبار مع مراعاة آداب المجلس وتوقير الحاضرين ممن هم أكبر منهم سنا .

مر عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ بأحد شوارع المدينة ، فوجد صبية يلعبون ، فخافه الصبية لما كان يعرف به من الشدة ففروا هاربين إلا صبيا لم يبرح مكانه وظل واقفا حتى اقترب منه عمر ، وسأله ، لَمِ لَمْ تفر كما فر أصحابك ؟

فقال الصبى : ياأمير المؤمنين ، ليست الطريق ضيقة فأوسع لك ، ولم أفعل ذنباً فأخافك .

فسر عمر بحسن جواب الصبى ــ ابن الزبير ــ وكان سروره بشجاعته الأدبية

---

(١) رواه البخارى

أكثر من سروره بحسن إجابته .
وليس لنا أن نفهم من هذا الموقف الرائع من الخليفة إلا أنه يشجع الصبى ليزداد ثقة بنفسه ، وأنه يأخذ بيده لينشأ شجاعا جريئا يواجه الأمور فى شجاعة وحزم ، ويحسم المواقف بجرأة وعزم .

ولاشك أن الصبى إذا وجد من يشجعه على الصفات الكريمة ، والخلال الجميلة حتى يشب عليها فإنها تلازمه طول حياته .

وفى هذه الفترة من حياة الصبى تكون القدوة الحسنة التى يراها فى البيت وفى الشارع وفى وسائل الإعلام هى الأستاذ الذى يتلقى عليه أعظم الدروس خطراً فى حياته ، وأكثرها تأثيراً فى مستقبله .

وفى هذه الفترة ينمو الطفل نفسيا ، ويتهيأ رويدا رويدا لاستقبال مراحل التربية المختلفة التى ستواجهه ، والإسلام قد نظم هذه الفترة تنظيماً دقيقاً بحيث يجد فيها الصبى مايعينه على النمو السوى والنشأة الطيبة .

وليس لأحد أن ينكر دور الإسلام فى الاهتمام بتربية النشء والعناية به وهو الدين الذى جعل طلب العلم فريضة والبحث عنه جهاداً .
لهذا فإن الإسلام قد حدد الفترة التى ينبغى فيها بدء التعليم ، وجعل فترته ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى :

وهذه المرحلة تبدأ من سن السابعة ، وتنتهى فى العاشرة ، وتلك المرحلة هى التى قال فيها الرسول ـــ ﷺ ـــ : (مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين) [١]

إن سن السابعة هى السن المناسبة لبداية التعليم ، فالصبى فى تلك الفترة

---

(١) رواه الامام أحمد .

يكون متجاوبا مع المعلم يتلقى تعليماته بالإذعان ،.ويتخذه دليلا له على طريقه ، وقدوة يقتدى بها فى حياته لذا ففى مقدور المعلم أن يشكل الصبى بالشكل الذى يريد ، ويصوره فى الصورة التى يشاء ، ويجعل منه الشخص الذى يحبه .

والتعليم فى تلك الفترة يكون بالقدوة الحسنة ، والكلمة الطيبة ، والتوجيه السديد ، وعلى المعلم أن يلتزم بهذا القدر ، ولايزيد عليه شيئا ، وليحذر الضرب لأنه يترك آثارا سيئة لاتزول من عقل الطفل بسهولة فى تلك الفترة .

وعلينا أن نعلم أن سن السابعة هو بداية سن التمييز ، ويستطيع الطفل أن يدرك كل مايلقى عليه ويعيه مما هو مناسب لعمره ، فلا يجوز أن نلقى عليه معلومات أكبر من مداركه ، أو نبحث أمامه نظريات فوق طاقته ، لأنه حين يلقى أمامه كلاما لايفهمه يشعر بقصور قد يؤدى إلى بغض للعلم والتعلم و هذا هو السر فى أن الصبى يسأل كثيرا ، ويلح فى طلب الإجابة ، والخطورة تكمن فى الإجابة غير السديدة .

ونحن نلاحظ أن السن التى حددها الإسلام لبدء التعليم لم تختلف كثيرا عنها فى تحديد علماء التربية فى العصر الحديث ، فالتعليم يبدأ عند هؤلاء فى السنة السادسة ، ومن المعلوم أن السابعة تلى السادسة ، فالطفل ينتهى من السادسة ليبدأ فى السابعة .

والطفل فى هذه المرحلة يكون كالعجينة بين يدى المعلم يشكلها كيف يشاء ، أو كالصحيفة البيضاء يخط فيها مايشاء ، ومهمة المعلم هى غرس الفضائل ، والأخلاق الحسنة والآداب التى بها تستقيم حياته وتحمد سيرته ، لهذا كان من الواجب على الآباء وأولى الأمر أن يختاروا المعلمين لأبنائهم على أسس أخلاقية دينية ولايكتفى بالجانب العلمى .

وقد ثبت بالتجربة أن الطفل فى هذه السن يملك قدرات جيدة على تخزين مايلقى عليه من المعلومات ، بحيث يستطيع استعادتها وتصورها كما رآها وسمعها فأما قبل ذلك السن فكثيرا مايخلط بين المعلومات ، ولايستطيع التمييز

بينها بسهولة ، بل هو لايقدر على تصورها إلا فى صورة مشوهة .

ومن أجل ذلك لاحظ المربون أن الفشل يلاحق الأطفال الدين يدفع بهم آباؤهم إلى المدارس فى سن مبكرة قبل سن السادسة إلا نزراً يسيرا وهم الذين يعرفون بالعباقرة والنوابغ ، وهؤلاء لايقاس عليهم لأنهم فلتات لايجود بهم الزمان إلا نادراً ندرة تجعلهم فى عداد المفقودين .

والإسلام وهو يحدد سن السابعة لبدء التعليم يتحرى ألا يرهق الطفل فى سن هو أحوج مايكون فيها إلى استجماع قواه ، وتكوين قدراته وطاقاته فإذا بددها الطفل فى التحصيل والتعليم ومحاولة جمع المعلومات وقواه الإدراكية لم تكتمل بعد ، فإنه لايستطيع جمعها والاستفادة منها فى الوقت الذى يحتاجها فيه .

وملاحظة أخرى ينبغى ألا تعزب عن الذهن ، وهى أن الرسول ـــ ﷺ ـــ قد أمر بتعليم الصلاة ، ولم يأمر بالبدء بتعليم الشهادتين اللتين هما الركن الأول من أركان الإسلام ، ذلك لأن الطفل نشأ بين أبوين مسلمين والمفروض فيه سلامة العقيدة ، وصحة الإيمان ، ويكفى ذلك لأن نبدأ معه بتعليم الفرائض التى يجهلها يقينا .

أما إذا لاحظنا انحرافا فى العقيدة أو عدم وضوح فى حقيقة الإيمان فعندئذ يجب البدء بتعليم العقيدة ، وتصحيح ماطرأ عليها من الانحراف .

وانما اختار الرسول ـــ ﷺ ـــ الصلاة ليبدأ بها المعلم لأنها أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وهى التى تفرق بين المسلم والكافر ، وتربط قلب المسلم بربه ـــ عز وجل ـــ ثم هى بعد ذلك تكرر خمس مرات فى كل يوم وتكرارها يعود الطفل عليها فى أقصر فترة ممكنة ، ويطبعه بمجموعة من الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة كالنظافة والنظام والطاعة ، ولعل ذلك أحد أسرار الصلاة الذى استدعى البدء بها .

فتعليم الصلاة يعلم الطفل النظافة ، فهو يستنجى إذ دخل الحمام ويتوضأ إذا هم بالصلاة ، ويطهر ثوبه إذا كان به نجاسة ، ويتحرى المكان النظيف الطاهر

ليصلى فيه .

كذلك يقتضى تعليم الصلاة تعليم النظام ، لأن المصلى يقف فى الصف مستويا مع المصلين ، ولايدخل فى الصلاة قبل الإمام ، ولايركع قبل أن يركع ولايرفع قبل أن يرفع وهكذا حتى يسلم الإمام فيسلم خلفه ، فإذا فعل ذلك وداوم عليه خمس مرات كل يوم أصبح النظام سجية يصعب عليه التخلى عنه

وكذلك يتعلم من تعلم الصلاة الطاعة ، حيث يتعلم أن إجابة داعى الله واجبة فلا يتخلف ، ويعرف أن تلبية النداء مطلوبة فلا يعرض ، وهكذا .

هذا إلى جانب مايتعلمه من محبة إخوانه والتعاون معهم ، والوقوف على أحوالهم والسعى لقضاء مصالحهم ، ومشاركتهم فى أفراحهم وأحزانهم إلى غير ذلك مماتقتضيه تعاليم الإسلام ، وتفرضه على المجتمع الإسلامى .

وهكذا تكون الصلاة مفتاحا للخير ، مغلاقا للشر ، وفى تعليمها للنشء توجيه له إلى كثير مما يجب أن يتعلمه المسلمون ، ويحرصوا عليه . وهناك ملاحظة هامة يجب أن ندركها ونحن نتكلم عن حكمة البدء بتعليم الصلاة وهى أن الصلاة ليست فلسفة نظرية يصعب على الطفل فى هذه المرحلة إدراكها ، والوقوف على أسرارها ، بل هى فريضة عملية تطبيقية يسهل تعلمها ، ولايستعصى على الطفل الإتيان بها ، ولايحصل من تعلمها إرهاق لعقل الطفل أو كد لذهنه ، وفى هذا إشارة واضحة إلى البدء فى تعليم الصبيان الأمور التطبيقية العملية ، والبعد بهم فى تلك المرحلة عن تلقى العلوم النظرية ، لأن عقولهم الغضة لاتحتمل استيعاب النظريات ، فيضيق الصبى بها مما يبغضه فى التعليم وتحدث نتيجة لذلك بينه وبين تلك العلوم النظرية فجوة نفسية قلما يستطيع الصبى ملأها فى المستقبل .

ويأتى بعد تعليم الصلاة دور تعليم بقية الفرائض كل فى حينه ، وذلك لأن بقية الفرائض موسمية ، بمعنى أنها تكون فى فترة محدودة من العام ، ولاتتكرر إلا بعد مضى عام

فالصيام يكون فى شهر رمضان ، والزكاة لاتجب إلا بعد امتلاك النصاب وحولان الحول ــ أى بعد مضى عام ــ والحج يكون فى أيام معلومة من السنة كل فريضة من هذه الفرائض لاتؤدى إلا مرة واحدة فى كل عام ، وكلما حان وقت فريضة وجب تعلمها ليعرف كيف يؤديها ، ولابأس بأن يتعلمها قبل وجوبها عليه .

وبهذا يتعلم الصبى أركان الإسلام الخمسة ، ويتعلم كيف يؤديها إذا وجبت عليه ، ولامانع من أن يدرب الصبيان على هذه الفرائض قبل وجوبها ، فإذا حان شهر رمضان يمنعون من الطعام والشراب فترة من النهار حتى إذا أجهدهم الجوع والعطش يأكلون ويشربون ، وإذا دخلت أشهر الحج حجوا مع أوليائهم وذويهم ، ولهم أجر الصيام والحج مادام يؤدى كاملا ، وليس عليهم وزر إذا تركوه مالم يبلغوا حد التلكيف .

ولقد كان الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ إذا أهل هلال رمضان يدربون أبناءهم على الصيام ، فيأخذونهم إلى المسجد ، ويحولون بينهم وبين الطعام والشراب حتى إذا أجهدهم الجوع أطعموهم [١] كما كان بعضهم يصحب صبية معه فى الحج ، وحديث المرأة التى سألت الرسول ــ ﷺ ــ عن حج الصبى حين رفعته إليه وقالت ! هل لهذا من حج ؟

فأجابها بقوله :(نعم ولك أجر) [٢] دليل واضح على ذلك .

وفى هذه المرحلة ينبغى أن تكون وسائل التعليم حسية تطبيقية إلى جانب القدوة الحسنة ، لأن الأمور الحسية يدركها الصبى بغير عناء ولاكد ذهن ، لأننا بذلك نكون عقل الصبى ، ونعطيه فرصة النمو السوى ولهذا يجب ألا يهمل الجانب العقلى مرة واحدة ، بل على المربى أن يلمسه فى رفق ، ويعالج جوانبه المختلفة بالطريقة التى تنميه تنمية طبيعية لاتفريط فيها ولاإفراط .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه مسلم .

إن التركيز على التدريب العملى لكل مايتلقاه الطفل من العلوم والمعارف يزيدها ثباتا ورسوخاً فى عقله ، وإن نزراً يسيراً من العلوم النظرية التى يدركها العقل بسهولة تمكن الصبى من التفكير المنشط للعقل ، وتعوده التدبر والفهم حتى لاتتعطل مواهبه العقلية ، ولاتتوقف مهارة التلقى والتعلم والتفكير .

والقدوة الحسنة هى أفضل وسائل التربية فى تلك المرحلة ، حيث يعجب الصبى بمن يقتدى به ، فيدفعه ذلك إلى التقليد فيحاول محاكاة من يقلده ويتأسى به فى أعماله ، وأكثر مايرى الصبى تلك القدوة الحسنة فى أبويه وأستاذه ، وغالبا مايعجب الطفل بأستاذه أكثر من إعجابه بوالديه فيكون تأثيره عليه أقوى ، وسلطانه أشد ، لأن الصبى يرى فيه مالم يره فى أبويه فهو الذى يتولى تربيته وتهذيبه .

فعلى الوالدين أن يكونا نموذجين ينظر إليهما الصبى بالإعجاب والتقدير إلى جانب نظرة الحب والاحترام ، وعلى الأستاذ كذلك أن يكون محل إعجاب الصبى وتقديره ، وبذلك يرى الولد فى البيت وفى المدرسة مايعينه على الاقتداء والتأسى ، فتنقش فى ذهنه صورة رائعة للحياة المثالية التى ينبغى أن يكون عليها المجتمع الفاضل الذى ينشده الإسلام .

ولايفوتنا أن نعلم أن المرئيات التى يشاهدها الصبى ، والمحسوسات التى يدركها هى التى سترافقه طول حياته ، ومن الصعب بل من العسير أن يتخلص منها لأنها تنقش فى مخيلته بشكل لايسمح لها بالزوال حيث تصل إلى عقله عن طريق الحواس التى هى أهم وسائل التعليم فى تلك المرحلة كما قدمنا .

ولهذا يجب أن يسير البيت والمدرسة والمجتمع فى نسق واحد سوى لااضطراب فيه ولاتناقض ، لأن الاضطراب يهز الصورة الجميلة التى ارتسمت فى ذهنه ، والتناقض يعكر عليه الحياة التى يعد نفسه لاستقبالها بكل شغف واهتمام ، وتكون النتيجة إصابة الصبى بالتوتر العصبى والانهيار النفسى ، وعندئذ يفقد الثقة فى كل ماحوله ، وهيهات أن تعود إليه تلك الثقة المفقوده التى تؤثر فى بناء شخصيته ، وتمكنه من مواجهة مشكلات الحياة وهو قادر

على التغلب عليها .

ولقد وضع الإسلام القواعد التى تضمن توجيه البيت والمدرسة والمجتمع وتجعلها كلها تتضافر فى بناء أمة قوية متماسكة ، تحيا حياة سعيدة ، وتعيش عيشة هنيئة ، لاينغص حياة أبنائها اضطراب فكرى ، ولايعكر صفوهم تناقض عملى وكان عماد ذلك الجوانب الآتية :

١ ـــ الأخلاق ٢ ـــ تحمل المسئولية ٣ ـــ القيام بالواجب

والإسلام حين اعتمد هذه القواعد ضمانا لسلامة البيت والمدرسة والمجتمع أكد عليها ، وألزم أتباعه بها ، وجعل الالتزام بها من أهم واجبات المسلم ، وأشعره بأن التقصير فيها تقصير فى واجب دينى يسأل عنه بين يدى الله ـــ تعالى ـــ .

ولما كانت متابعة هذه القواعد تحتاج إلى يقظة منبعثة من داخل الإنسان ، إذ لايمكن أن تقوم عليها مراقبة خارجية فقط ، لأن الإنسان كثيرا مايخلو بنفسه ، ويفقد حينئذ المراقبة الخارجية ، ولايكون لها السلطان المؤثر عليه ، كان لابد من وجود حارس لاينام ، ووازع لايفتر ، وآصرة قوية تربط الإنسان بربه فى كل أحواله ، وليس هناك من يستطيع القيام بتلك المهمة الصعبة سوى الضمير الإنسانى الذى لاينفك عن صاحبه فى ليله ونهاره ، وفى نومه ويقظته ، وفى بيته ومحل عمله ، وفى خلوته وجلوته .

ولهذا تعهد الاسلام الضمير بالتربية والتقويم فأيقظه يقظة لم يتمكن من النوم بعدها حتى لو أراد ، لأنه أناط به مهمة عظيمة وجليلة لايمكن لمن أنيطت به تلك المهمة أن ينام أو يهدأ وهو يعلم أنه الحارس الوحيد والأمين عليها .

ولدينا فى تاريخ المسلمين أمثلة حية على صدق مانقول وهاك نموذجا من تلك الأمثلة التى أدهشت المربين ، وحيرت المفكرين .

إن قصة الغامدية التى زنت تضع بين أيدينا مثالا فذا ليقظة الضمير الإنسانى الذى تعهده الإسلام بالتربية والتقويم ، وسأنقلها هنا كما رواها المحدثون خالية من المؤثرات حتى يكون وقعها فى النفس وتأثيرها فى القلب متناسبا مع وقعها الحقيقى .

روى مسلم فى صحيحه أن امرأة من غامد من الأزد جاءت إلى النبى ــ ﷺ ــ فقالت : يارسول الله ، طهرنى

فقال : (ويحك ارجعى فاستغفرى الله وتوبى إليه)

فقالت : تريد أن ترددنى كما رددت ماعز بن مالك إننى حبلى من الزنى .

فقال : أنت ؟ قالت : نعم .

قال لها : (حتى تضعى مافى بطنك) .

وفى رواية قال لها : (اذهبى حتى تلدى) فلما ولدت قال : (اذهبى فأرضعيه حتى تفطميه) فلما فطمته أتته بالصبى فى يده كسرة خبز فقالت : هذا يانبى الله قد فطمته ، وقد أكل الطعام .

فدفع الصبى إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموها .

ورمى خالد بن الوليد رأسها بحجر فتنضّح الدم على وجهه ، فسبها

فقال النبى ــ ﷺ ــ: (مهلا ياخالد ، فوالذى نفسى بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له) ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت .

هذه قصة امرأة أبى ضميرها أن ينام على جريرة ارتكبتها ، وظل يقظا يحرمها هدوء البال ، وراحة النفس ، بل ظل يؤرق عليها عيشها ، وينغص عليها حياتها ، ولم يكن ذلك ليوم أو يومين ، أو لشهر أو شهرين ، ولكنه ظل يقظا قرابة ثلاثة أعوام وهى مدة الحمل والرضاعة حتى فطمته .

إننا لو أدركنا الظروف التى كانت تعيشها تلك المرأة الفاضلة لأدركنا مدى تأثير التربية الإسلامية فى أخلاقها ، إنها تدرك ولاشك أن وراء هذا الإصرار على

الاعتراف بالزنى الرجم حتى الموت ، بل وراءه ماهو أشد من الموت وهو حرمان ولدها من حنانها وعطفها ورعايتها ، وحرمانها هى من ولدها الذى لايزال فى مسيس الحاجة إليها .

ولكن ذلك كله ، وإن طاف بذهنها وهى تعترف بجريمتها لايمنعها من أن تكون أمينة مع نفسها وفية للمجتمع الذى تنتسب إليه ، لقد أنساها ضميرها طعم الموت ، وأشعرها أن كتمان هذه الجريمة البشعة تدنيس للمجتمع الطاهر الذى أنقذها من الضلال ، ومد لها يد العون لتعيش بين أبنائه كريمة عزيزة ففضلت اجتثات الجريمة من المجتمع ولو كان ذلك بإزهاق روحها لإنقاذه من إشاعة الفاحشة بين أبنائه .

إن شعور تلك المرأة بمسئوليتها أمام الله هون عليها حرمانها من ولدها ، ولأن تلقى الله طاهرة من جريمة الزنى خير لها من أن تعيش عمرها تحت وخز الضمير وطفلها بين أحضانها ، إن قيامها بالواجب أنساها مرارة الحرمان ، فتجرعتها راضية مادامت ستلقى الله طاهرة .

إن الضمير الإنسانى هو مقياس الحياة الحقيقية فى الإسلام ، ولهذا ركزت عليه التربية الإسلامية ، وربطته بخالقه يراقبه فى حله وترحاله ، ويبقى حارسا أمنيا يذكر صاحبه إذا نسى ، وينبهه إذا غفل ، وهو فى الإنسان وازع الخير ، رادع عن الشر ، ولهذا كان الجانب الأخلاقى وثيق الصلة بالضمير ، والخطأ من الإنسان لايقع إلا فى غفلة منه ، فإذا تنبه الضمير أرق صاحبه ، وظل يطارده حتى يطهر نفسه إما بإقامة الحد أو بتوبة نصوح تزيل عنه أوضار تلك الجريمة .

وكما أن الضمير وثيق الصلة بالأخلاق فإنه كذلك عظيم الصلة بما يتحمله من المسئوليات ، فهو دائما يذكره بالموقف الرهيب بين يدى الله — عز وجل — ويخوفه من الإهمال فى تلك المسئولية لأن الذى حمله المسئوليه هو الذى لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

إن هذا الشعور الذى يجده كل إنسان فى قلبه هو الذى يوحد اتجاه الأفراد

فى المجتمع الإسلامى ، وهو الذى يجعل البيت والمدرسة والمجتمع يتجهون فى مسيرة متناسقة نحو غاية واحدة ، إن كل فرد فى البيت أو المدرسة أو المجتمع يصاحبه ضميره ولاينفك عنه ، ولهذا سيكون الجميع تحت حراسة مشددة من يقظة الضمير الذى يوجههم ويراقب مسيرتهم .

روى الترمذى وأبو داود ، أن رجلا اغتصب امرأة ، وفعل بها الفاحشة دون أن تتعرف عليه ، وشكت المرأة ذلك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فجىء برجل ظن الناس أنه هو الفاعل ، وعرضوه على المرأة .

فقالت : هو هو

فذهبوا به إلى الرسول ـ ﷺ ـ ليقيم عليه الحد ، فأمر به الرسول أن يرجم ، فإذا رجل يقوم من بين الجالسين ، ويقول : يارسول الله ، أنا صاحبها فأمر الرسول بترك الرجل الأول ، ورجم الثانى .

فقال بعض الصحابة لبعض : ألا ترون هذا الخبيث قد ستره الله ، ويفضح نفسه ، فسمع الرسول ذلك ، فنهاهم وقال : (لقد تاب توبة لوتابها أهل المدينة لقبل منهم)

هكذا يكون الضمير فى الإنسان هو محور الجانب الأخلاقى فيه ، وبه يشعر الإنسان بالمسئولية الملقاة على عاتقه ، وبه يؤدى ماعليه من الواجبات ، وحيث يكون الضمير مع كل إنسان فإنه بذلك تتوحد مشاعر الناس ، وتتجه مسيرتهم وجهة واحدة فيكون الفرد فى البيت والمدرسة والمجتمع تحت توجيه واحد سوى لااضطراب فيه ولاتناقض ، وحينئذ تثمر التربية ، ويفيد التوجيه ، ويعيش المجتمع فى سعادة وهناء .

المرحلة الثانية :

وهذه المرحلة تبدأ من سن العاشرة ، وتترواح مدتها بين سنتين وخمس سنوات حسب نمو الصبى وظروف البيئة التى ينشأ فيها ، فالبيئات الحارة ينتقل فيها الصبى إلى مرحلة البلوغ والتكليف فى سن مبكرة والبيئات الباردة قد يتأخر

فيها ذلك إلى سن الخامسة عشرة .

والمرحلة المعروفة بمرحلة البلوغ أو التكليف شرعاً هى المسماة بمرحلة المراهقة عند علماء النفس والاجتماع ، وهى التى سنتكلم عنها بعد هذه المرحلة .

وفى المرحلة الثانية يكون الصبى قد اشتد عوده ، ونمت مداركه ، ونضج عقله . وأصبح ولديه قدرات يميز بها بين الأشياء ، ويفرق على أساسها بين الطيب والخبيث ، ويدرك الفائدة التى تعود عليه من فعل الشيء أو تركه .

ولاشك أن المرحلة الأولى إذا أسست على القواعد الصحيحة التى ذكرتها تكون قد تركت أبعادها فى عقله ، وغرست بذورها فى قلبه ، وهذه المرحلة الثانية ستكون تثبيتا لهذه الأبعاد ، وتنمية لتلك البذور ، تتعهدها ولاتهملها ، وتعين الصبى على الاستفادة منها إلى أقصى حد ممكن .

ذلك لأن المرحلة الثانية هى الركيزة التى يعتمد عليها المربون فى تكوين شخصية الفرد ، والأساس الذى ينون عليه تقويمه في المرحلة التى تليها .

لهذا كان لابد من تنويع أساليب التربية فى تلك المرحلة بما يتناسب مع وضع الصبى وسلوكه ، وإذا كانت المرحلة السابقة قد نهجت نهجاً واحداً فى أسلوب التربية ، وكان هذا المنهج مقتصرا على التوجيه باللسان بين أمر ونهى ، ونصح وتوجيه ، ولم يسمح فيها بغير هذا الأسلوب ، لأن تعديه والجنوح إلى الأساليب الأخرى قد يترتب عليه مشكلات لاتحمد عقباها ، من العقد النفسية ، وبغض التعليم ، وكراهية المعلمين ، والتمرد فى النهاية على مايجب أن يحترمه ويوقره بحيث لايمكن تقويمه ، ولا العودة به إلى الطريق السوى .

إذا كان ذلك فى المرحلة الأولى فإن المرحلة الثانية تكون فيها مدارك الصبى قد أخذت طريقها الطبيعى إلى النمو والاكتمال ، فإذا نبه إلى شيء لاينبغى فعله أدرك معنى هذا التنبيه وعرف سببه ، وإذا عوقب على ترك شيء لايجوز تركه فهم مدى العقوبة ، وعلم أنه يستحقها .

وإذا بلغ إدراك الصبى هذا الحد فإنه بلاشك يستفيد من العقاب وتكون العقوبة أسلوبا مناسبا من أساليب التوجيه والإرشاد .

وليس معنى هذا أن نترك فى تلك المرحلة أسلوب النصح والتوجيه ، بل سيظل هذا الأسلوب مرافقا للمربى فى المراحل الثلاث التى سيمر بها الإنسان ، بل سيكون أسلوب النصح والتوجيه هو الأسلوب الأساسى فى جميع المراحل مالم تبدر بادرة انحراف فى سلوك الصبى ، بحيث نتأكد أن النصح والإرشاد لم يعد مجديا مع شخص ما ، وحينئذ فليس أمام المربى إلا أن يوقع نوعا من العقوبة الرادعة بغير إزعاج ، وذلك لإصلاح ماأفسده اللين مع ذلك الصبى المتمرد .

ولهذا قرر الرسول ــ ﷺ ــ عقوبة الضرب عند بلوغ الصبى سن العاشرة ، فقال ــ عليه الصلاة والسلام ــ : « واضربوهم عليها وهم أبناء عشر » وهذا الضرب المنوه به هنا هو ماتعارف عليه علماء المسلمين ، وعرفوه بأنه ضرب غير مبرح ــ أى لايكسر العظم ولايسيل الدم ــ فهو إذن مجرد رادع ينبه الصبى على ماحدث منه من الخطأ ليصحح المسيرة ، ويعود إلى الصواب .

فالانحراف إنما يقع من الصبى فى حالة غفلة لم يدرك فيها نتيجة هذا الانحراف ، أو خطأ فى لحظة ضعف أمام مغريات لم يستطع مقاومتها ، وهو فى كلتا الحالين كالنائم لابد له أن يستيقظ ليدرك عواقب مايعمل .

وإذا كان النائم لايوقظه التنبيه الخفيف ، أو النداء اللطيف فلابد أن يوقظ بوسيلة أخرى حتى لايتعرض لما يؤذيه إذا ظل نائما ، وإيقاظ الصبى الذى لايقبل النصح ، ولايخضع للتوجيه ، إنما يكون بتلك الضربة التى تعتبر عند المربى كالضوء الأحمر الذى يوقد لاتقاء الخطر الذى يهدد الإنسان .

فالعقوبة أياكان نوعها فى تلك المرحلة أسلوب يلجأ إليه المربون عندما تعجز النصيحة عن القيام بوظيفتها ، أو عندما يكون التوجيه صرخة فى واد أو نفخة

فى رماد عندئذ لابد من الاستعانة بالأسلوب الآخر.

فالعقوبة مادية كانت أو معنوية مقررة فى تلك المرحلة ، على ألا تكون عقوبة منفرة تسبب انهيارات نفسية أو توترات عصبية ، وهى بهذا تكون وسيلة ناجحة من وسائل التقويم والتهذيب .

يشهد بذلك كل من مر بتلك المرحلة فى حياته التعليمية ، وليس مانعانيه اليوم فى بيوتنا ومدارسنا ومجالسنا من تمرد الصغار ، وعدم مبالاة الكبار واستهتار العام والخاص إلا ثمرة فجة مرة من ثمرات إهمال العقوبة ، ورفعها من مجالات التعليم ، حتى أصبح أمر التربية فى عرف علمائها المحدثين لايعدو كلمات لاتكاد تخرج من الأفواه حتى تتساقط تحت الأقدام وتضيع فى زحمة هذا الركام الضخم من العبارات التى ذخرت بها قواميس اللغة وكتب المعجمات .

إن الجميع يشكون من تلك الظاهرة ، ونحن نتألم لطغيانها ، ولكن ليس فينا من يطالب بإعادة النظر فيما اتخذناه من قررات نحو أساليب التربية وكأن المطالبة بإعادة الأخذ بنظام العقوبة جرم لايغتفر ، وذنب لايعفى عنه حتى أصبحنا نخشى الحديث فيه لالشيىء إلا لأنه مستورد من بلاد فرضت علينا أساليبها فى التربية التى ثبت فسادها .

هذا هو موقف التربية الإسلامية من موضوع العقوبة كأسلوب من أساليب التربية ، وهذه هى ثمراتها متمثلة فى هذا الجيل الذى تتلمذ على أيدى المربين المسلمين وهو ولاشك جيل تفخر به الأمة ، وتعتز به الأجيال المتعاقبة مهما اختلفت معه فى الفكر أو فى الأساليب ، وهاك توضيحاً بإيجاز لأسلوب العقوبة فى التربية الإسلامية ، مع بيان ماجناه المجتمع من ثمراتها .

الإسلام يقرر العقوبة كأسلوب من أساليب التربية ، ويأمر بها فى بعض الأحيان التى لايجدى فيها غير العقوبة ، فالقرآن الكريم وهو يعرض بعض المشكلات التى تحدث بين الزوجين ، وهى مشكلة النشوز ، والنشوز من

المرأة تعبير عن تمردها وعصيانها للزوج ، وهذه المشكلة من أخطر المشكلات فى الحياة الزوجية ، لأنها تعكر صفوها ، وتجعلها جحيما لايطيقه أحد من الناس مهما كان واسع الصدر قوى الاحتمال .

ذلك لأن الزوجة هى سكن الزوج ، وموضع سره ، ومصدر سعادته والموئل الذى يلجأ إليه الزوج فيجد فيه راحة نفسه ، وطمأنينة قلبه وهدوء باله ، والنبع الصافى الذى ينهل منه الزوج الحب والحنان والمودة والرحمة ، فإذا فقد الزوج ذلك كله فى لحظة نشوز فكيف تكون الحياة فى هذا البيت الذى كان ويجب أن يظل مصدر ذلك كله للزوج ؟

لاشك أن الموضوع يحتاج إلى علاج ، يعيد للبيت مرحه وفرحه ، وهدوءه وسعادته ، ولن يكون ذلك إلا بترك النشوز والرجوع إلى الحياة الفطرية التى هى أساس السعادة البشرية .

لذلك بادر القرآن الكريم فوضع العلاج لحل تلك المشكلة التي تكاد تقضى على سعادة الأسرة وهناء الزوجين فقال ــ تعالى : ﴿ واللاتى تخافُون نشوزَهُنَّ فعظوهنَّ ، واهجروهنَّ فى المضاجِعِ ، واضربوهن ﴾[1]

والآية الكريمة بهذا السياق ترسم خطوات التربية فى الإسلام ، وهى كما نرى تجعل الضرب آخر أسلوب يلجأ إليه المربى ، لايستعمل إلا إذا عجزت الوسيلتان السابقتان عن تقويم المعوج ، وتوجيه الإنسان إلى ماينبغى أن يكون عليه .

فالتربية تعتمد أولا أسلوب التوجيه والنصح مع الرفق واللين ، ﴿ فعظوهن ﴾ فإن لم يفد ذلك الأسلوب فعقوبة معنوية ترد العاصى إلى الطاعة ، وتدله على الصواب ، وتعينه على سلوك السبيل السوى ﴿ واهجروهنَّ فى المضاجع ﴾ فإذا لم تفلح العقوبة المعنوية وفشلت فى رد الزوجة إلى الصواب ، فالعقوبة المادية

---

(١) سورة النساء الآية ٣٤ .

الرادعة ﴿ واضربوهن ﴾ وهى آخر الدواء لعلاج المشكلة ، وكما يقولون آخر الدواء الكى .

والإسلام وهو يقرر العقوبة المادية يضع الأسس الواقعية للتربية لأنه لاينظر إلى الموضوع نظرة فلسفية بل ينظر إليه بواقعية ، ونلاحظ ذلك فى العقوبات التى فرضها الإسلام لمن يرتكبون الجرائم ، ويتعدون الحدود .

فالذين يرتكبون الجرائم ، ويقعون فى المآثم يعتبرهم الإسلام مرضى يجب أن يعالجوا ، وليس علاج المرضى جميعا واحدا ، بل إنه يختلف باختلاف نوع المرض وحالة المريض ، وذلك أمر لايختلف فيه اثنان من العقلاء .

ونحن نلاحظ أن بعض المرضى يبرئهم رفع معنوياتهم والأخذ بأيديهم إلى طريق السلامة ، وبعضهم يبرأ بتناول الدواء ولو كان مرا ، وآخرون لايصلحهم إلا إجراء عملية جراحية قد تكون أحيانا ببتر عضو من أعضائهم .

وإذا كان هذا مقررا فى علاج الأجسام ، ولم يختلف عليه أحد من خلق الله فلم نختلف عليه فى علاج الأرواح والعقول ، ونحاول مخالفته فى نظام التربية والتهذيب ، والإسلام وهو يجعل العقوبة أسلوبا من أساليبه فى التربية يعلم تماما أنه ستكون هناك معارضة شديدة لهذا الأسلوب ، وأنه سيكون هناك معارضون أقوياء سيواجهونه بحجج عقلية وأدلة نفسيه ، ولكنه مع ذلك لم يهتم بالمعارضة ولم يعبأ بالمعارضين ، وقرر العقوبة فى ثقة ، وهو على يقين من أن أولئك المعارضين سيتراجعون أمام الواقعية التى عالج بها الموضوع ، وأن المعارضة ستنهار أمام الحقيقة التى لاينكرها إلا جاحد لجوج .

نرى ذلك فى العقوبات التى حددها الإسلام للجرائم التى ترتكب على أرضه من أبنائه وغير أبنائه على حد سواء ، والجرائم التى ترتكب على أرض الإسلام نوعان :

نوع فيه حدود فرضها الله ، وهذه متى بلغت الإمام ــ حاكم المسلمين ــ بشهودها وما يثبتها على مرتكبيها وجب إقامة الحد ، ولا يجوز العفو عن

المجرم بحال من الأحوال إلا إذ كانت الجريمة قتل نفس ، وعفا أولياء المقتول عن القاتل ، ورضوا بالدية أو تنازلوا عنها .

ولهذا لما شفع أسامة بن زيد — رضى الله عنه — فى المرأة المخزومية السارقة تلون وجه رسول الله — ﷺ — وقال : (أتشفع فى حد من حدود الله) فقال أسامة أستغفر الله يارسول الله .(١)

وكان الصحابة — رضوان الله عليهم — قد تعلموا ذلك وعرفوه ، فقد رأى الزبير بن العوام — رضى الله عنه — رجلاأخذ سارقا يريد أن يذهب به إلى السلطان ، فشفع فيه ليتركه فقال الرجل : حتى أبلغ به السلطان .

فقال الزبير : إنما الشفاعة قبل أن يبلغ إلى السلطان ، فإذا بلغ إليه فقد لعن الشافع والمشفع .

والرسول — ﷺ — يقرر هذه القاعدة فى وضوح لايحتاج المسلم معه إلى برهان ، فإنه لما سُرقت خميصة صفوان بن أمية ، وكانت ثمن ثلاثين درهما ، وأخذ السارق إلى رسول الله ، فأمر بقطعه .

قال صفوان : فأتيت النبى — ﷺ — فقلت : أتقطعه من أجل ثلاثين درهما ؟ أنا أبيعه وأنسئه ثمنها .

فقال النبى — ﷺ — : (فهلا كان ذلك قبل أن تأتينى به) .

وأما النوع الثانى فهى جرائم لا حدود فيها ، وهذه يترك الأمر فيها للحاكم يختار العقوبة الرادعة المناسبة التى تردع المجرم ، وتحسم الأمر ، وتقطع دابر الجريمة ، وتطهر المجتمع منها ، وتقيه شرورها .

ولما كان المنهج الإسلامى فى التربية لايقدم العقوبة ، ولا يلجأ إليها إلا عند الضرورة أمر بدرء الحدود والستر على مرتكبى الجرائم ، لأن دفع الحدود عمن

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

وجبت عليه ، وستره حتى لايفضح أمام الناس أسلوب آخر من أساليب التربية فى الإسلام ، فهناك من الناس من تعالجه بالعفو والصفح ، وتقومه باللين والرفق فهؤلاء يكون سترهم أعظم تأثيرا فى نفوسهم من إقامة الحد ، وأكثر إيجابية فى توجيههم من الضرب والقطع .

وفيهم يقول الرسول ـ ﷺ ـ : (ادرؤوا الحدود عن المسلمين مااستطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله ،فإن الإمام إن يخطىء فى العفو خير من أن يخطىء فى العقوبة) [1]

إن هذا المنهج الذى وضعه الإسلام قد نجح فى استئصال شأفة المعاصى والمخالفات ، وقضى على ماكان شائعا فى المجتمع العربى قبل الإسلام من الفساد والجرائم ، وأصبح المجتمع الإسلامى بعد الأخذ بهذا المنهج مجتمعا فاضلا نظيفا لأن الإسلام إلى جانب فرض العقوبة قد لمس أبناءه بروحانيته السامية فتورعوا عن الشبهات ، وجعل العقوبة لمن خبثت نفوسهم فلم تؤثر فيهم المواعظ والتوجيهات .

إن الناس ليسوا جميعا على شاكلة واحدة ، بل هم مختلفون تبعا لما ينشئون فيه من الظروف المختلفة والبيئات المتباينة ، والواقع الذى يتربون من خلاله وهذه هى طبيعة المجتمعات ، وليس المجتمع الإسلامى بدعا فى ذلك ، فالناس متباينون فى طبائعهم وتصرفاتهم لهذا كان لابد من تنوع وسائل التربية بين النصح والتوجيه مرة والضرب والتعنيف مرة أخرى .

ومما لا يختلف فيه الناس أن فريقا منهم تؤثر فيه الكلمة ويأسره المعروف ومنهم فريق لا يُثنيه إلا الشدة ، ولا يرغمه إلا العنف ، وهذا من البدهيات التى تعارف عليها الناس فى كل الشعوب والمجتمعات ، فالإسلام عندما يقرر العقاب ويجعله وسيلة من وسائل التربية إنما يخطط للوصول إلى غايته بواقعية لم تراعها النظريات التربوية الحديثة ، وبهذا استطاع الإسلام كما قلت أن يجتث

---

(١) رواه الترمذى وصحح وقفه على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

الجريمة من جذورها ، وأن يجنب أتباعه ويلاتها .

وإن نظرة واحدة إلى المجتمع العربى قبل الإسلام ، ونظرة أخرى إلى المجتمع نفسه بعد أن استقر على الإسلام ، وانضبط بقوانينه التى تنظم سلوكه ومعاملاته ، وأخذ بنظام العقوبة التى كافح بها الجرائم ، وقضى على الفساد نرى من خلال ذلك كيف تحولت الفوضى إلى نظام ، وكيف حلت الطمأنينة محل الإرهاب ،

إن الأموال التى كانت تنهب وتسلب بالغارات المعتمدة على القوة والفتك أصبحت فى حرز مكين لايجرؤ أحد على الاقتراب منها بغير حق ، والأعراض التى كانت تنتهك بغير حسيب ولا رقيب غدت مقدسة لا يعتدى عليها ، فمن سولت له نفسه أن يخالف أو يشذ عن نظام هذا المجتمع كانت له العقوبة بالمرصاد ، ماثلة أمام عينيه تردعه إذاهم ، وترده إذا شرد .

وكانت نتيجة ذلك وجود مجتمع فاضل شهد له العدو قبل الصديق ، وغدت الحياة فيه أحب إلى الناس من الحياة فى أى مجتمع عاصره ، وعاش فيه الناس آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم حتى وصفه الله ـــ عز وجل ـــ فى القرآن الكريم بقوله : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (١)

هذا هو حال المجتمع الذى فرض العقوبة كوسيلة من وسائل التربية ، فماذا كان حال المجتمعات التى رفضت العقوبة ، واعتبرتها أهم أسباب التوترات العصبية والعقد النفسية ، ونسبت إليها كل خلل أو انهيار نزل بالأفراد والجماعات ؟

نعم ، نحن نتساءل مع غيرنا ماحال هذه المجتمعات ؟ ونحن لا ننتظر الإجابة من علماء هذه الفلسفة ، ولا من أساتذة هذه المدرسة ، ولكننا نأخذها من

---

(١) آل عمران الآية ١١٠

الواقع الذى تعيشه هذه المجتمعات .

إن المجتمعات التى رفضت هذا الأسلوب منيت بالعلل الآتية :

١ ـــ تحريف مفهوم الحرية .
٢ ـــ التسيب الأخلاقى .
٣ ـــ ضعف المستوى التعليمى .

إن علماء التربية المحدثين يستبعدون العقوبة من أساليب التربية ويرون أنها من أهم أسباب المشكلات النفسية والجسمية التى يعانى منها المجتمع الحديث ، ومن الغريب أننا سلمنا لهم ، ونقلنا عنهم دون أن ننظر فى العواقب ، أو نفكر فى النتائج .

وأحب أن أنبه هنا إلى حقيقة يجب ألا تغيب عن الأذهان ، وهى أن هؤلاء العلماء يرمون من وراء الأفكار التى يخرجون بها على العالم مواجهة التشريعات الإسلامية فى محاولة لتنفير الناس منها ، وتنحيتها عن واقع الحياة ، فهم يعلمون أن الإسلام وضع منهجه التربوى على قواعد منها العقوبات الرادعة التى تعرف باسم الحدود ، وهذه الحدود هى المعلم المميز لهذه الأمة .

من أجل ذلك شنوا حربا شعواء على الحدود التى فرضها الله على هذه الأمة ، فحاولوا تشويهها وتقبيحها فى أوساط السذج والبسطاء فقالوا : إن الحدود توجد مجتمعا من المشوهين العجزة ، الذين لا يستطيعون النهوض بواجباتهم ، ولايقدرون على مسايرة النهضة الحديثة ، والتطور المطرد .

ولكن هذا الأسلوب قد فشل فى إثبات ما يدعيه هؤلاء المتقولون حيث أثبتت الوقائع التاريخية أن المجتمع الإسلامى عندما كان يطبق الحدود كان مجتمع الأمن والأمان ، والنشاط والإنتاج ، والفتوح والتعمير وأنه لم يتدهور إلى الوضع الذى هو عليه الآن إلا بعد أن ترك الحدود ، وساير النظريات التربوية الحديثة .

فلما ثبت فشل هذه الطريقة حاولوا الوصول إليها بطريقة ملتوية يضللون فيها

عن قصدهم ، ويبعدون الأنظار عن محاولتهم فخرجوا على العالم بأفكارهم المغلقة بالحفاظ على النشء ، وإبعاده عن العقد النفسية ، والتوترات العصبية ، زاعمين أن ذلك إنما يصاب به الجيل نتيجة استعمال العقوبة كوسيلة من وسائل التربية ، فحرموا الضرب على المربين ، وسنوا العقوبات لمن يستعمل العقوبات ، ومن الغريب أنهم يحرمون العقوبة بقانون ينص على العقوبة ، إنهم يحرمون توقيع العقوبة على التلاميذ ، ويبيحونها على المربين ، فماذا نفهم من ذلك ؟

إننا نفهم من ذلك أن المقصود هو إيجاد جيل متسيب لا يخضع لنظام ولايحترم القوانين ، ولايرى أنه ملزم بشيء تجاه أمته ووطنه .

ونحن بدورنا نسأل فلاسفة هذه النظرية ، لم لم يعرف الناس العقد النفسية ، والانهيارات العصبية إلا في هذا الجيل الذى حرصتم على تجنيبه العقوبات التى تسبب ذلك فى زعمكم ؟

وبماذا تعللون انتشار المصحات النفسية ، وتبررون هذه الزيادة المطردة فى عدد المرضى الذين يراجعون هذه المصحات ؟؟

إن العقوبات التى تسبب ذلك حسب نظرياتكم محظورة الآن ، ولا توجد مدرسة واحدة تعتبر العقوبة وسيلة من وسائل التربية ، فمن أين أتت تلك العقد التي اضطرت الحكومات بغير استثناء إلى الإكثار من إنشاء المصحات النفسية ؟؟

قد تضربون أخماسا فى أسداس وأنتم تحاولون الإجابة عن تلك الأسئلة ، وأنا أقول لكم قد كفيتم ذلك ، فإن التقارير الطبية تؤكد أن انتشار الأمراض النفسية والعصبية راجع إلى وجود فراغ فى نفوس المصابين لم تستطع التربية الحديثة ملأه ، وأن التسيب الناشيء عن الفراغ الروحى هو أهم هذه الأسباب .

إن التسيب الذى عم حياة الناس كلهم دون أن يكون هناك رقيب يحاسب على الأخطاء ، ولم يكن هناك رادع يكبح جماح الشهوات ، حتى انطلق الناس

فى هذا العالم الذى رفعت عنه العقوبات وراء نزواتهم ، ولهثوا خلف أهوائهم ، ففعلوا كل مازينه لهم شيطانهم ، وارتكبوا كل ماسولته لهم أنفسهم هو السبب الحقيقى فى انتشار هذه الأمراض .

نعم ، لقد فعل الناس كل ذلك حتى ملوا ، وضاقوا بالحياة وضاقت بهم الحياة ، وهنا حاولوا الفرار من هذا الضياع ، والهروب من أنفسهم التى أوردتهم موارد الهلكة والضلال ، ولكن إلى أين يفرون ؟ ومتى وكيف يهربون ؟؟

عندئذ اصطدموا بالحقيقة التى طالما تجاهلوها ، ووجدوا أنفسهم يفرون من ضياع إلى ضياع ، ويهربون من أنفسهم ليقعوا فى حبائل أنفسهم ، فكانت العقد النفسية ، وكانت الانهيارات العصبية ، وكانت نتيجة لذلك كله محاولات النسيان التى لجأ إليها هؤلاء المرضى ظانين أنهم وجدوا بما يتعاطونه من المسكرات والمخدرات العالم الذى يمكنهم الفرار إليه ، والوسيلة التى تمكنهم من الهروب ، وهم لايدرون أنهم بذلك قد زادوا الطين بلة ووقعوا فى شر مما كانوا يريدون الفرار منه .

إن هؤلاء لو حوسبوا على أخطائهم منذ اللحظة الأولى ، وأضىء لهم النور الأحمر من بداية أمرهم لعلموا أنهم يسيرون فى طريق وعرة خطرة ، ولتنبهوا إلى ماسيقعون فيه لو استمروا فى هذا الطريق ، وحينئذ تكون محاولات النجاة ناجحة ، ووسائل الإنقاذ صالحة ، لأنهم يكونون قد أدركوا أنفسهم وهم لايزالون فى بداية الطريق ، قبل أن يتوحلوا فى حمأته ، ويتردوا فى هلكته .

وبعد هذه اللفتة آن لنا أن نتكلم عما سبقت الإشارة إليه من العلل التى أصيبت بها المجتمعات الرافضة للعقاب .

تحريف مفهوم الحرية :

الحرية الحقيقة بالاعتبار والتى تعارف عليها العقلاء من الناس هى التى لاتضر أحداً ، ولا تعتدى على الحقوق ، ولا تكون الحرية كذلك إلا إذا كانت

مضبوطة بالأخلاق التى أجمع العقلاء على استحسانها ، وتلك هى الحرية المنشودة للإنسان .

والحرية بهذا المفهوم هى المقصودة عند إطلاق كلمة الحرية فى الإسلام ، وقد حدد الحديث الشريف هذا المفهوم تحديداً لا يتطرق إليه خلل ، ولا يحتمل الشك ولا التأويل ، يقول الرسول ـ ﷺ ـ : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها . وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم .

فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم ومأأرادوا هلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا » [١]

إن هؤلاء الذين صاروا فى أسفل السفينة يريدون أن يمارسوا حريتهم فى ملكهم حيث يخرقون خرقا فى مكان يتمكنون من الاستقاء منه دون أن يؤذوا غيرهم ، ونلاحظ أنهم فوق كونهم يريدون أن يخرقوا هذا الخرق فى سهمهم لايريدون أن يؤذوا غيرهم فحسن النية متوفر لديهم .

ولكن ممارسة هذه الحرية مع توفر الدوافع وحسن النية فيها إضرار حتمى بمن يمارسونها وبغيرهم من شركائهم ، بل وبكل من على ظهر السفينة لأن السفينة تكون معرضة للغرق متى خرقت ، فهل يستسيغ عاقل أن يترك هؤلاء وشأنهم يفعلون مايشاءون مادام ذلك فى سهمهم ؟

هذا الفهم للحرية هو مايرفضه الإسلام ، وهو مايرفضه كل عاقل على ظهر الأرض ، ولكنه ومع الأسف هو الذى يريده الذين فهموا الحرية مطلقة من كل قيد مجردة من الأخلاق ، ذلك لأنهم يريدون حرية لا قيود فيها ، فكل الضوابط عندهم تتنافى مع مفهوم الحرية ، وكل القيود فى نظرهم أغلال يجب أن تزول أمام الحرية .

---

(١) رواه البخارى

يقول الاستاذ المودودى ـــ رحمه الله ـــ وراج بين الناس نظرية متطرفة ، فى الحرية الشخصية ترمى الى إعطاء الفرد الحرية التامة ، والإباحية المطلقة بإزاء المجتمع ، فأصبحوا ينادون بأنه يجب أن يكون للفرد الحق المطلق فى عمل مايشاء ، والحرية الكاملة فى ترك مايشاء ، وليس للمجتمع أن ينتزع منه الحرية الشخصية .

وأماالحكومة فواجبها أن تحافظ على هذه الحرية التى يتمتع بها الفرد فى تصرفاته ، وأما المؤسسات الاجتماعية فينبغى ألا تكون غايتها سوى إعانة الفرد على تحقيق مقاصده . (١)

إن الحرية التى تخلوا من القيود ليست حرية وإنما هى همجية مغلفة بغلاف أخاذ جميل ، والحرية الحقيقية التى يجب أن يهتم بها الناس هى الحرية المقيدة بقيود أخلاقية تعصم صاحبها من التردى ، وتمنعه من الإضرار بحقوق الآخرين .

ومن أجل تماسك المجتمع ومن أجل الحفاظ على مقدساته من دين وخلق وسلوك وضع الإسلام للحرية مفهوما يدعم الروابط بين الناس ويؤكد احترام المقدسات فى نفوسهم ، فلا حرية لأى إنسان فى عمل يضر غيره ، ولا حرية له فى عمل يخالف به مبادىء الشريعة ونظامها ولا حرية له فى عمل يعرضه هو نفسه للتلف والفساد ، قال تعالى : ـــ ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما ﴾ وهذا هو مفهوم الحرية فى الإسلام . (٢)

إن أولئك المتمردين على القيود لم يقفوا عند حد طرح القيود والتحلل منها ، ولكنهم ظلوا يطورون مفهوم الحرية ، ويشككون فى القيود التى هى أسس للنظام الأخلاقى الإنسانى ، وملأوا الجو بما طرحوه من الأسئلة المثيرة ، فهم يقولون : ماهذا العفاف ؟ وماهذا الظلم والتضييق على الشباب الجامح بقيود

(١) الحجاب ص ٥١ .

(٢) أسس الدعوة ص ٣٣ .

التقوى ؟ وأى نازلة تنزل بالأرض إذا أحب المرء حبيبته بدون زواج ؟ ثم إذا تزوج المرء فهل يفارقه قلبه حتى يحرم عليه الحب فيما بعد ؟ (١)

بهذه الأسئلة وأمثالها فكوا كل القيود عن الحرية وأطلقوها وحشا كاسرا يفتك ويدمر ، وينتهك كل القيم والمقومات ، حتى غدت الحرية كلمة عارية عن كل ما يمت لفضيلة بصلة ، وأصبحت الرذيلة هى الحرية التى تعارف عليها هؤلاء المتمردون .

وليس هذا المفهوم للحرية مفهوم العامة من الناس ، ولكنه المفهوم الذى تبناه الفلاسفة والأدباء ، وقد قام هؤلاء بنفخ روح الجرأة الفاجرة ، ودفع الشباب إلى نبذ كل الفضائل ، والتخلص مما بقى فى النفوس من آثار التصورات الأخلاقية .

يقول بييرلوى أحد فلاسفة الغرب : إن القيود الأخلاقية حائلة فى الحقيقة دون نمو الذهن الإنسانى ونشوء مداركه ، ومادام الإنسان لا يحطم أثقالها ، ولا يتمتع بلذات نفسه وجسده بتمام الحرية فلا يمكنه الارتقاء العقلى أو العلمى أو المادى أو الروحى .

ويقول : إن بابل والإسكندرية وأثينا وروما والبندقية وكل ماعداها من مراكز المدنية والحضارة كانت على أوج مجدها وأتم ازدهارها حينما كانت الميوعة والإباحية واتباع الأهواء فيها على أشدها ، ولكنه لما منيت الشهوات الإنسانية فيها بقيود الأخلاق والتزامات القانون تقيدت روح المرء وجمدت فى تلك القيود كما تقيدت فيها أهواؤه وشهواته . (٢)

هكذا يقرر فلاسفة الغرب تجريد الحرية من القيود الأخلاقية والدينية ، ويرفعون بذلك عقائرهم فى غير خجل ولا استحياء ، وهم لايقصدون من وراء ذلك إلا رفع كل العقبات من طريق الشباب حتى يمعن فى إشباع شهواته

---

(١) الحجاب ص ٥٣ .

(٢) نقلا عن كتاب الحجاب ص ٥٨ .

ونزواته ومن هذا الباب يقتحم فى جرأة ووقاحة القيود التى ترسم حدود الفضائل ، وتوضح معالم السلوك الإنسانى الرشيد ، فيقضى عليها فى وحشية ، ويتخلص منها بشراسة ، وتبقى أمامه الحياة بلا قيود فلا عقوبة تردع ، ولا أخلاق تمنع ، ولادين يهذب ، ويعيش الشباب بهذه الحرية فى غابة لانظام فيها ولا قانون لها .

التسيب الأخلاقى :

ترتب على تعلق الناس بالحرية المطلقة الخالية من القيود ، النابذة لكل القيم والفضائل ذلك التسيب الأخلاقى الذى عانت وتعانى منه المجتمعات الأوروبية ، فليس هناك صوت يرتفع إلا بالمناداة لتمكين الناس من التمتع الكامل بحريتهم النفسية والجسمية كان ذلك هو الشعار العام الذى رفعه كل إنسان : الكاتب والأديب والفيلسوف والمفكر ، وجاراهم فى ذلك الغوغائيون والسذج من الناس الذين لم يكن لديهم من سعة الأفق والقدرة على التفكير فى العواقب ما يجعلهم يدركون ما ينتظرهم من الدمار والخراب نتيجة لتلك الصيحات المنكرة .

لم يكن هناك هم للناس إلا التخلص من كل القيم لأنهم اعتبروها من بقايا الأخلاق المرتبطة بالدين وهم قد تحملوا من قيود الدين مالم يعد معه طاقة للتحمل ، لقد كانت الثورة عنيفة ضد الدين وضد كل ما يتصل بالدين ، فكان التسيب الأخلاقى نتيجة ضرورية لتلك الثورة الحمقاء التى لم تميز بين الصحيح والفاسد ، ولا بين الطيب والخبيث ، ولم يكن أمامهم شىء أهم من التخلص من الدين ، وتحكم رجال الدين .

والذى يظهر من خلال المناداة بتلك الحرية أنها كانت ذريعة للتخلص من الجانب الأخلاقى ، ولهذا ركز كل المنادين بها على هذا الجانب ، وشجعوا الناس على الخروج عليه ، وخاطبوا فيهم الجانب الجنسى الغريزى مخاطبة مكشوفة ليتعود الناس على تناوله بغير استحياء ولا خجل ، وإذا مارفع الحياء من القلوب ، واجترأ الناس على الخوض فيه لم يعد هناك ما يخجل المرء من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ممارسته ، وصدق الرسول الكريم ـــ ﷺ ـــ حيث يقول : (إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ماشئت) (١)

إن الحياء فطرة فطر الله الناس عليها ، وهو من أهم العوامل التى تمسك على الناس قيمهم ومروءاتهم وتديم بينهم المودة والرحمة ، وتؤدم روابط المحبة بين أفراد المجتمع ، ولهذا لما رأى رسول الله ـــ ﷺ ـــ رجلا يعظ أخاه فى الحياء ، ويقول له : إنك لتستحى .

قال له ـــ عليه الصلاة والسلام : ـــ (دعه فإن الحياء لايأتى إلا بخير) (٢)

والحياء شعبة من شعب الإيمان ، لأنه يحول بين الإنسان وبين التبجح بالفسق والمجاهرة بالعصيان ! ويمسك عليه خلقه ودينه ، وإذا استحى الإنسان من الناس وراقبهم فأولى به أن يكون استحياؤه من الله أشد ، ومراقبته له ـــ عز وجل ـــ أعظم .

أما إذا ألغى الإنسان فطرته ونزع برقع الحياء عن قلبه ، وأنقص إيمانه بفقد شعبة من شعبه فإنه لا خير يرجى من هذا الإنسان .

ولما كان الحياء هو القاعدة الأساسية لتماسك المجتمع كان تركيز دعاة الحرية الحمقاء على الاستخفاف به كصفة من الصفات التى يعيش بها الناس سعداء حتى يستهينوا بها ، ويقللوا من قيمتها ومنزلتها فى نفوسهم وحينئذ يقع المجتمع فيما كان الناس يترفعون عن الوقوع فيه قبل ذلك ، ويسهل عليهم فعل المنكرات والتردى فى الرذائل ، يقول الشاعر :

إذا لم تخش عاقبة الليالى ولم تستحى فاصنع ماتشاء

ولقد حمل لواء تلك الدعوى المأفونة رجال عرفوا فى أممهم بالنبوغ ، وعملوا فى الصحافة التى طرقت كل باب ، ودلفت إلى كل قاعة ، وصاحوا فى

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه البخارى .

الناس ينادون برفع الحرج عن مرتكبي جرائم الجنس ولو كان بالإكراه ، ويطالبون بعدم اعتبار ذلك جريمة يعاقب عليها القانون ، ويعللون ذلك بأنه ضرورة من ضرورات الجسم الفطرية شأنه في ذلك شأن الجوع والعطش .

يقول رئيس تحرير مجلة لاليون ريبيا كان : إذا أعوز الفقراء الجوع وحملتهم المسغبة على ارتكاب السرقة والقتل والسلب ، قيل هيئوا لهم الخبز يكفوا عن السلب والنهب بأنفسهم ، ولكن ياليت شعرى لماذا تأخذ النفوس هذه العاطفة — من النصح والمؤاخاة لضرورة من ضرورات الجسم الطبيعية — ولا تتسع لضرورة طبيعية أخرى مثلها لاتقل عنها خطورة كما أن السرقة يلجأ إليها المرء من شدة الجوع كذلك ينبعث فيه الأمر الذى يؤدى إلى الزنا بالإكراه ، وربما ينتهى إلى القتل من شدة إلحاح تلك الضرورة التى ليست أقل ركوزا فى فطرة الإنسان من الظمأ والجوع .

ثم يقول : وإذا كنا نوزع الخبز مجانا على الجياع ، فيجب علينا أن نمهد الأسباب لإشباع الهالكين من جوع آخر . (١)

إن فى هذا النداء نوعا من الفجور والمجون لم يعرفه الناس قبل كتابة هذه السطور ، ولقد كان الناس قبل ذلك يستحون من ذكر الجنس ويستترون إذا تحدثوا عنه لأنه فى عرفهم جريمة لا يجوز المجاهرة بها ، ولكن بعد أن توقح هذا الصحفى ، ورفع بها صوته أضحى الناس يتكلمون به جهارا نهارا بل أصبحوا يمارسونه وكأنه حق مشروع من حقوقهم المغتصبة .

لقد كان أولى بالكاتب — إن كان يريد الإصلاح — أن ينادى بتخفيف القيود عن الزواج ، وأن يرغب الشباب والشابات فيه لإشباع تلك الرغبة عن طريق مشروع وهذا هو الطريق السوى لمعالجة تلك المشكلة وأمثالها .

ونحن لانقول للناس جوعوا واسرقوا ولكنا نقول لهم اعملوا واكسبوا فإن

---

(١) نقلا عن كتاب الحجاب ص ٦١ ، ٦٢ .

أعيتكم الحيلة ، وقعدت بكم سبل العيش فنحن نيسرها لكم ، ونمد لكم يد العون لتأكلوا حلالا طيبا ، ونحن كذلك لانمنع الجائعين جنسيا من قضاء وطرهم ، ولكنا نعينهم على الوصول إليه بالطريقة المشروعة والوسائل التى تليق بكرامة الإنسان ويكون ذلك بتيسير الزواج ، وتسهيل سبل العيش حتى يتمكن كل شاب من أن يكون رب أسرة تسهم فى بناء المجتمع ورقيه .

إن الله ــ عز وجل ــ كرم بنى آدام ، ووضع لحياتهم أسسا وقوانين تتناسب مع هذا التكريم ، فلا يليق بهم أن يتجنبوا سبل الحياة الشريفة ليعيشوا كما تعيش البهائم يتسافدون على قارعة الطريق .

وإذا كان الذوق السليم يستحى من هذا الفعل من البهائم ، وإن كان لايراه قبيحا فى حقهم ، فإنه يكون أشد إنكارا له إذا وقع من الإنسان ويراه جريمة منكرة لا تتواءم وحياة البشر الذين منحهم الله العقول ليميزوا بها بين الطيب والخبيث .

وإذا كان إشباع البطون ممكنا بالطرق المشروعة فإنه لايجوز مطلقا اللجوء إلى الطرق غير المشروعة ، وكذلك يكون الحال فى إشباع الجانب الجنسى ، أما أن يرغب الناس عن الزواج ، ويفروا من تبعاته ومسئولياته ، ثم ينادى المأفونون بإباحة الجنس لهم لأنهم جياع فهذا هو منطق المجانين .

كان طبيعيا أن يستهين المجتمع بالأخلاق بعد أن خرقت آذانه صيحات الصائحين ، وكان طبيعيا كذلك أن يرى الناس الأخلاق شيئا من مخلفات العهود البائدة وينظر إليها على أنها آثار ليس لها مكان فى دنيا الناس ، ولكن مكانها الطبيعى هو المتاحف ودور الآثار .

وهكذا وبهذه الصيحات المعتوهة دفنت الأخلاق فى الغرب فى مقابر لايعرف مكانها ، وأصبحت أسطورة يسمع عنها الناس ولايجدون لها أثرا . إن الأخلاق فى الإسلام من أهم جوانب الدين ، وإن المرء مهما علا نسبه وعظم قدره وشرفت أسرته ، ولكنه تجرد من الأخلاق فإنه لن يبلغ مبلغ شخص أخذ

نفسه بها وإن لم يطاوله نسبا وقدرا وأسرة .

ولقد بلغ اهتمام الإسلام بالأخلاق أن جعل مكانتها تعدل مكانة العبادة يقول الرسول ـ ﷺ ـ : « وإن الرجل ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم » [(1)]

كما يخبرنا ـ ﷺ ـ بأن ذوى الأخلاق الفاضلة والصفات الحميدة سيكونون أقرب الناس منه منزلة يوم القيامة ، وذلك حين يقول : « ألا أنبئكم بأحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة » ؟

قالوا : بلى ، يارسول الله .

قال : « أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون » [(2)]

ولايكتمل إيمان المؤمن مهما صام وصلى حتى يحسن خلقه ، وتحمد صفاته ، وفى هذا المعنى يقول ـ ﷺ : ـ « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا » . [(3)]

وبهذه الأحاديث الشريفة يضع الإسلام جزاءً حسناً لمن يتحلى بالخلق الكريم ، وبمفهومها يحرم من تلك النعمة العظيمة من لايوصف بها ، فسوء الخلق يحرم صاحبه من محبة الرسول ﷺ ـ وينقص من إيمانه ، ويبعده عن مجلسه ، وهذه ولاشك عقوبة رادعة تجعل الإنسان يفر من الوقوع فيها ، وهى عقوبة لايلمسها إلا المؤمنون الذين يقدرون مكانة الرسول عند ربه ، ويعرفون مدى الخسارة التى تصيبهم إذا حرموا من القرب منه ،إنها عقوبة مخيفة يدركها المرء بقلبه ، ويلمس أثرها بعاطفته ، فيحاول ألا يتورط فيها .

إن الذين يقلبون الحقائق ، ويضعون الأمور فى غير موضعها ، فيجعلون الرذائل من أجمل مايتحلى به المرء ، ويعتبرون ذلك تخلصا من أوزار

---

(١) رواه أبو داود بلفظ إن المؤمن بدلا من إن الرجل .

(٢) رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط .

(٣) رواه أحمد .

المجتمعات التى أثقلتها تصورات الأخلاق التى عفى عليها الزمان ، وأكل عليها الدهر وشرب ، أما هؤلاء فإنهم يزنون الأمور بالموازين التى تحقق لهم المصلحة .

فأى خصلة تدر عليهم ربحا هى من الأخلاق الفاضلة عندهم ولو كانت الكذب والغش والخداع ، وأى خلة تقلل من هذا الربح أو تمنعه فهى من الرذائل عندهم ولو كانت الصدق والنصح والإخلاص ، فالأخلاق عندهم مرتبطة بمصالحهم المادية القريبة ، فهى إذن أخلاق تجارية لاصلة لها بالفضائل ولا تقاس بما تحققه من المكارم .

هذه هى حقيقة الأخلاق عندهم ، والغريب أننا مفتونون بأخلاقهم ونسمع عنها أساطير لاتمت إلى الحقيقة بنسب ، وهم يشيعون على ألسنة أشياعهم أنهم أمناء فى معاملتهم ، صادقون فى أقوالهم ، أوفياء بعهودهم ، والأغرب من ذلك أنهم يدعوننا ــ مظهرين النصيحة لنا ، والإخلاص لبلادنا ــ إلى التخلق بما يتخلق به الغربيون ، ونحن وراءهم نردد فى غير وعى أن فى الغرب إسلاما بلا مسلمين ، وفى الشرق مسلمين بلا إسلام .

وهذه دعوى المستغربين ، ولكنها تفتقر إلى الدليل .

والحقيقة أن أخلاقهم أخلاق تجارية كما قدمت ، فهم أمناء حينما تحقق لهم الأمانة مكسبا ماديا ، وهم صادقون مادام الصدق يحقق لهم منافع قريبة ، وهم أوفياء إذا كان الوفاء وسيلة للوصول إلى مصالحهم وإلا فأين الأمانة وهم يسرقون مقومات البلاد التى قهروها واستنزفوا خيراتها ؟ وأين الصدق فى وعودهم للشعوب التى احتلوها ومنوها بمعسول الأمانى ؟؟ وأين الوفاء فى معاهداتهم التى عقدوها مع الشعوب التى غلبوها على أمرها ؟؟؟

إن هذه الشعوب لم تجن من وراء الذين يزعمون أنهم يتخلقون بأخلاق الإسلام إلاالغدر والخيانة ، وتمزيق الصف ، والقضاء على الفضائل ، ونقل العادات السيئة من بلادهم إلى بلادنا ، إنهم لم ينقلوا إلينا شيئا من تقدمهم الصناعى ، ولا من تنظيمهم الإدارى ولكنهم ملأوا بلادنا عريا وعارا ، وفحشا

ودمارا وفقرا واستهتاراً .

وهذه الدعوى لاتحتاج إلى دليل ولا برهان ، فنظرةواحدة إلى الأوضاع التى تعيشها البلاد التى منيت بهم ، ونكبت بالوقوع تحت سيطرتهم ، لقد زحف هؤلاء الغربيون بجيوشهم المدمرة فاحتلوا بلادنا ، وأفسدوا أخلاقنا ودمروا كل مقومات حياتنا .

إن انجلترا وهى تحارب الدولة العثمانية قد وعدت الشريف حسين بأنها ستجعله امبراطوراً على الإمبراطورية العربية التى لم تقم إلا فى خيالهم واشترطوا للوفاء بذلك أن يساعدهم العرب فى حربهم ضد الخلافة العثمانية ووفى العرب ، فخانوا أمتهم ، وثاروا ضد خلافتهم ، ومكنوا لأعدائهم فى بلادهم ولم تف انجلترا بما وعدت لأن الوفاء يضر بمصالحهم ، ولا يحقق لهم أمانيهم .

هذه صورة من آلاف الصور التى لاتزال ماثلة فى أذهان المسلمين تثبت كذب المستعمرين الغربين والشرقيين ، وتؤكد خداعهم وحرمانهم من أى تصور أخلاقى فى معاملاتهم .

إن بلادا تحرم الصدق لأنه لايجلب لها من الربح مايجلب الكذب وتستحل الغدر لأن الوفاء يلزمها بالتزامات لاتحب أن ترتبط بها وتبيح الخيانة مادامت هى السبيل إلى الثراء والجاه ، إن هذه البلاد جديرة بأن تحرم من كل القيم ، وهى وإن بدت للناس فى صورة أخاذة رائعة إلا أنها فى الحقيقة لم تعْد كونها صورة جوفاء كالخربة التى يطوقها صاحبها بسور من المرمر والرخام ، فإذا ما أتيح لأحد أن يرى ماوراء ذلك السور لم يرسوى خربة مملوءة بالقمائم والمخلفات .

إن وضع القوانين التى تسمح للناس بممارسة الرذائل بحرية تامة دون حسيب ولا رقيب ، وتعتبر العقوبة على الجريمة نوعا من الحجر على الحريات هو السبب الحقيقى فى التسيب الأخلاقى الذى منيت به هذه البلاد ذلك لأن الناس

عندما يشعرون برفع العقوبة عن المذنبين يحسبون ذلك إباحة لهذا الفعل ، فيجترئون عليه ، ويمارسونه وهم يعتقدون أنه حق من حقوقهم ، وليس لأحد أن يعترض على مايفعلون ، فيكون رفع العقوبة بمثابة الإجازة لفعل الرذائل والمنكرات .

وهذا هو ما حصل فى بلاد الغرب حيث أباحوا كل ماكان يستقبحه العقلاء بقوانين سنوها لحماية الماجنين ، فاستظل الناس بظل هذه النظم ، وراحوا يعيثون فى الأرض فسادا ، ولو أن هذه القوانين وضعت إلى جوار كل رذيلة عقابا لخشى الناس العقاب إذا لم يخشوا حساب الله . وذلك هو الوازع الذى أودعه الإسلام فى كل قلب فسمت الأخلاق ، وتطهر المجتمع ، وعاش الناس آمنين فى ظل الإسلام .

ضعف المستوى التعليمى :

لقد كان لرفع العقوبة بكل أشكالها أثناء العملية التربوية آثار غير حميدة لمسناها فى أبنائنا ، ووجدناها فى تلامذتنا ، وشهد بذلك المنصفون من رواد الحركة الفكرية فى بلادنا ، ومن أهم تلك الآثار ضعف المستوى التعليمى .

وليس هناك من يستطيع أن يكابر ويقول بأن المستوى التعليمى الآن لايقل عنه فى الفترة التى كانت العقوبة مقررة فيها كأسلوب من أساليب التربية والتعليم ، إننا جميعا نعترف بضعف المستوى ، ولكننا نختلف فى سببه ولعل الذين يؤيدون استبعاد الضرب عن العملية التربوية يعزون سبب ذلك الضعف إلى أسباب أخرى لانعرفها ، يلتمسونها التماساً مبررين بذلك ما يتكلم عنه العام والخاص من ضعف المستوى التعليمى الواضح فى هذا الجيل الذى اتخذه المربون حقلا لتجاربهم ، ومسرحا لعرض خواطرهم .

أنا لاأدرى ، لماذا نجرب ؟ إننا قد مررنا بفترة من أنجح فترات حياتنا فى الحقل التعليمى والتربوى ، إننا جميعا نشهد بأن الحقبة التى اجتزناها فى تاريخنا القريب ، والتى كانت العقوبة فيها عاملا من عوامل التهذيب والتقويم كانت

أخصب فترة فى حياتنا العلمية والأدبية ، فقد تخرج فيها من العلماء والأدباء والمفكرين وذوى الرأى ما عجزنا عن تخريج أمثالهم فى تلك الفترة التى أهملنا فيها العقوبة مع كل الناس على اختلاف طبيعتهم ومداركهم .

وليس ضعف المستوى التعليمى ناشئا عن رفع نظام العقوبة وحده ، ولكنه أهم الأسباب فى ذلك ، وهناك أسباب تشارك رفع العقوبة فى ذلك الضعف . هناك أنواع الملاهى التى استولت على أوقات الناس ، وشغلتهم عن كل ماسواها . وهناك القصور فى العملية التربوية الذى ترتب عليه انصراف الطلاب إلى أمور قد تجذب انتباههم وتستولى على حواسهم أكثر من ممارستنا للجانب التربوى ، وهناك عدم اهتمام القائمين على التربية والتثقيف بابتكار الوسائل التعليمية التى تشد انتباه الطالب ، وتثير فى نفسه حب ما يتلقاه فى المدرسة من العلوم والتوجيهات والسلوك السوى .

ولكننى مع وجود هذه العوامل التى تعاونت كلها على ضعف مستوى التعليم فى هذا الجيل أعتقد أن عامل إبعاد العقوبة عن هذا المجال هو أهم هذه الأسباب وأقواها ، ذلك لأن الإنسان إذا علم أنه لن يعاقب على الإهمال ، ولن يتعرض لأى نوع من أنواع المؤاخذة سواء منها المادية والمعنوية أو الحسية والأدبية فإنه لا يهتم بأداء ما عليه من الواجبات .

وهذا هو السر فى تقرير العقوبة فى نظام التربية الإسلامية ، ولهذا وجه الرسول المربين إلى استعمال العقوبة لمن لايلتزم بواجبه ، ولم يؤد ماعليه من الالتزامات كما سبقت الإشارة إليه .

والقرآن الكريم يوضح لنا أن العقوبة مقابل التقصير ، وحيث لايكون تقصير فلا عقوبة ، يقول الله تعالى : ـ ﴿ واللاتى تخافون نُشُوزَهُنَّ فعظوهنَّ واهجروهنَّ فى المضاجع ، واضربوهنَّ ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾[1]

(١) سورةالنساء الآية ٣٤ .

فالعقوبة هنا سواء كانت معنوية أو مادية مقابل العصيان والنشوز فإذا كانت الطاعة فلا عقوبة . ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾

على أننا ينبغى أن نعلم أن محاولة رفع العقوبة عن مجال التربية لما يترتب عليها من المشكلات النفسية والجسدية إنما هو محض وهم لاسبيل إلى تحقيقه ، لأن العقوبة إذا وقعت حسيا فهى لامحالة واقعة معنويا شاءوا أم أبوا .

فالتسوية بين المحسن والمسيء تعتبر عقوبة للمحسن ، ومكافأة المجد ومنع الكسول عقوبة للكسول ، وهكذا تكون العقوبة مقررة رغم المحاولات المبذولة لإقصائها ، والعقوبة المعنوية تكون أشد على النفس من العقوبة المادية ، وما يترتب على العقوبة المعنوية من المشكلات النفسية والعصبية أخطر ألف مرة مما يترتب على العقوبة المادية .

فالأولى أن نكون صرحاء مع أنفسنا من جهة ، ومع أبنائنا وكل من نتعهدهم بالتربية من جهة ثانية ، ومع واقع العملية التربوية من جهة ثالثة ، فنعترف بالعقوبة كوسيلة من وسائل التربية والتهذيب .

والصبى فى هذه المرحلة من حياته يعد لأن يكون صاحب رسالة ، ويدرب على تحمل الصعوبات ، ومواجهة العقبات ، ويؤهل لكى يستطيع التحكم فى عواطفه وانفعالاته ، حتى يكون قادراً على مواجهة المرحلة القادمة بقلب كبير ، ونفس مطمئنة ، لأن المرحلة القادمة من أخطر مراحل الحياة فى رحلة الإنسان التى يقطعها وهو يسير إلى مصيره المجهول .

وقد تكون العقوبة فى تلك المرحلة نوعا من التدريب على تحمل المشقات التى يتحملها الإنسان عبر حياته حتى يمكنه تحمل ماهو أشق منها مما سيضطر إلى تحمله راغبا أو راهبا .

إن العقوبة فى تلك المرحلة ضرورية لمن لا تفيد معهم النصيحة والتوجيه لأنها توقظ مدارك الصبى ، وتنشط حواسه ، وتنمى انتباهه ، ولعل عدم تقرير العقوبة فى المرحلة السابقة من أجل أنها لم تثر فيه شيئا من ذلك بقدر ما تبغضه

فى التعليم ، وتنفره من النصح والتوجيه ، وتترك فى نفسه كراهية لايزول أثرها بالنسبة للعلم والمعلم وكل ما يتلقاه عنه .

ومع اعتقادى بأن العقوبة ضرورية فى تلك المرحلة لكل مهمل أو مقصر فإننى لست مع القائلين : « إن أذن الصبى فى ظهره لايسمع إلاحين يضرب » وهذه وإن كانت قاعدة اعتمدها المربون فى العصور القديمة ، وبخاصة قدماء المصريين إلا أنها ينبغى ألا تكون قاعدة مسلمة مع كل إنسان ، فإن التجربة قد أثبتت أن هناك طائفة من قادة الفكر والرأى والثقافة لم تتعرض للعقوبة قط ، بل كانت الكلمة تكفيهم ، والنصيحة تبلغ مبلغها من قلوبهم .

شمول التربية الإسلامية :

فى هذه المرحلة من مراحل التربية والتثقيف يجب الاهتمام بالجوانب المختلفة فى الإنسان ، وإذا كنا قد اهتممنا بالجانب الأخلاقى المنبثق عن التوجيه الدينى فى المرحلة السابقة فيجب ألايفتر هذا الاهتمام فى تلك المرحلة ، بل ينبغى أن يستمرويتطور مع سن الصبى ونموه حتى يتأصل فى نفسه ويصبح سجية وخلقا لا ينفك عنه كما يجب أن نضيف فى هذه المرحلة الاهتمام بالجانب الروحى والجانب العقلى لأن هذين الجانبين ينموان طبيعيا مع كل إنسان حسب العناية بهما والاهتمام بتوجيههما ، فإذا قدر لصاحبهما نوعا من العناية والاهتمام يكون نصيبه منها أوفر ، وحظه أكثر ، أما إذا أهملا فإنهما ينموان فطريا تؤثر فيهما البيئة ويخضعان للواقع الذى يعيشه صاحبهما .

الجانب الروحى هو الذى يربط الصبى بخالقه ، وينمى فيه حاسة المراقبة لله ــ عز وجل ــ ويلين قلبه ، ويرهف حواسه ، عندئذ يخاف من العصيان ويرهب التمرد والخروج على النظم ، فإذا ماشب على ذلك كان عضواً عاملاً فى مجتمعه مثمرا فى مجال عمله ، لايغش ولا يسرق ، ولايهمل ولا يفرط ، وبذلك تستقيم الحياة به وبأمثاله ، ويعيش المجتمع فى سعادة وهناء .

وأما الجانب العقلى فلأن الصبى يستعد فى هذه المرحلة لينتقل إلى المرحلة التى تليها ، وهى مرحلة مليئة بالمشكلات كثيرة المزالق وعرة المسالك فإذا لم

يؤهل الصبى لمواجهة هذه المرحلة بقوة الجانب الروحى ، وعمق التفكير العقلى فإنه يكون معرضا للاستسلام لتلك المشكلات ، فيلقى بيده ويقع فريسة للصراع النفسى والعقلى .

ولا أريد بالاهتمام بهذين الجانبين الإهمال أو التقصير فى الجانب الحسى الجسمى فى الصبى بل يجب أن نذكر بين الحين والحين بهذا الجانب الهام والذى أخذ حظه وافرا فى المرحلة السابقة لكيلا يترتب على إهماله شباب مترهبين ، وجيل يعيش للجانب الروحى فقط والترفع الوجدانى ، فيحرمون من الحياة الواقعية التى يتفاعلون بها مع المجتمع ولكى نتجنب الحياة الفلسفية التى يقع ضحيتها جيل من الناس يسبحون فى آفكار وأوهام ويعيشون فى عزلة عن آلناس ، ولايؤثرون فى المجتمع تاثيراً إيجابياً خلاقا ينهض به إلى أرقى مدارج الكمال الممكن للإنسان كذلك ينبغى أن نعطى الجانب الجسمى حظه من العناية والاهتمام لأن إهمال هذا الجانب فى تلك المرحلة يكون سببا فى إيجاد جيل هزيل ضعيف يعيش عالة على غيره ، يأخذ ولايعطى ، وينبغى أن نكون حذرين ونحن نمنح الصبى فرصة ممارسة هذا الجانب حتى لايطغى على غيره من الجوانب لأن ممارسة كل ما يتصل بالجانب الجسمى محبب إلى النفس لأنه فرصة ترفيهية تروح عن النفس همومها ، وتبعد العقل عن التفكير المضنى الذى كثيرا مايترتب عليه ذبول الجسم وضموره ، فإذا لم نضع القيود التى تضبط ممارسة هذا الجانب ، ونحدد له وقت ممارسته فإنه يملك على الصبى كل حواسه ويأخذ منه كل وقته ، وتصبح إعادته إلى مايجب أن يكون عليه أمراً عسيراً إن لم يكن متعذرا .

وبمراعاة هذه الجوانب المختلفة ــ الحسية والعقلية والجسمية والروحية ــ نوجد التوازن المطلوب فى العملية التربوية والذى هو المقصود الأساسى فى الإسلام ، وبهذا التوازن يتكون جيل سوى ، طاهر الروح ، ناضج العقل ، قوى الجسم ، سليم الحواس ، ومن هؤلاء يتكون المجتمع الإسلامى الصحيح .

وهناك أمر آخر ينبغى أن يتنبه له المربى وهو مراعاة ومراقبة انفعالات الصبى وتصرفاته حيال بعض المواقف التى يمر بها ، فإذا رآه يتحكم فى عواطفه ، ويضبط انفعالاته ، ويتصرف بحكمة معقولة مناسبة لعمره شجعه ، وأخذ بيده ، ونهض به إلى

مزيد من الرق والحكمة وضبط النفس .

وإذا رأى خلاف ذلك قومه وعدله ، وهذب سلوكه وتصرفه ، ووجهه إلى جادة التى يجب أن يكون عليها هو وأمثاله فى تلك المرحلة وذلك يكون بتصرف المربى بالحكمة والانضباط والتعقل بحيث يقلد الصبى أستاذه حتى يصبح هذا الخلق عادة له .

إن تعويد الصبى التحكم فى انفعالاته ، والتعقل فى تصرفاته فى باكورة حياته يطبعه على ذلك الخلق ، ويجعله أكثر اتزاناً فلا ينفعل إلا لما يستحق الانفعال ، ولايثور إلا إذا اقتضت الحكمة الثورة ، ويكون مع ثورته رزينا لايخرج عن حد الاعتدال ، ولايرتكب من الأفعال مالا يليق بالعقلاء ، وهذا مايجب أن يؤخذ به الصبى فى الجانبين السلوكى والأخلاقى أو الروحى والعقلى .

أما مايجب أن يتعلمه فى تلك المرحلة فكل مايتصل بتقويم الجانبين السابقين كحفظ شيء من القرآن الكريم ، وتعلم بعض الأحاديث الشريفة ، ومعرفة الحلال والحرام مما يتصل بحياته ويتناسب مع عقله ، وفقه العبادات ونحو ذلك من مقومات الحياة الفاضلة .

ذلك كله إلى جانب بعض العلوم التى تساعد على يقظة المدارك ونمو الذهن ، واكتشاف المواهب ، وتحديد درجة الذكاء مثل : الرياضيات المناسبة ، والتربية الفنية التى تكسبه مهارات وخبرات جيده ، والتربية البدنية وغيرها ، لأن ذلك يمكن المربى من وضع المنهج المناسب ، واختيار الوسائل المعينة فى المرحلة الآتية ، ولأنه فوق ذلك يؤدى إلى تصنيف الطلاب حسب ميولهم ورغباتهم بغير عناء .

إن اكتشاف مواهب الأطفال فى وقت مبكر ومعرفة درجة ذكائهم فى المرحلتين السابقتين يمكن المربى من توجيه كل صبى إلى الوجهة التى يمكنه أن يبرز فيها ، ويعينه على الاستفادة بها فى مستقبل أيامه .

وأحب أن أنبه هنا إلى أنه لابد أن تقع أخطاء من الصبيان عمداً أو سهواً ، وإزاء

تلك الأخطاء تظهر عبقرية المربى ، وتبرز مهارته التربوية ، وقد تكون هذه الأخطاء سببا فى اكتشاف ضعفه وعدم قدرته على معالجة هذه الأخطاء ، وحينئذ لابد من تغييره ، وتولية من هو أكفأ منه لتلك المرحلة .

ولهذا كان لابد من أن يكون أساتذة تلك المرحلة أكفأ الناس على القيام بهذه المهمة بعكس مانمضى فيه الآن من أن المدرس الكفء هو الذى يتولى التدريس فى المرحلة الثانوية ، ومن هو دونه فى الكفاءة يتولى التدريس فى المرحلة الابتدائية ، تلك خطة عكسية تنعكس آثارها السلبية على حياة أبنائنا فى مستقبلهم ، ولعل السبب فى ذلك أمران هامان .

أولهما : نظرة المجتمع إلى مربى المرحلة الابتدائية على أنه أدنى مرتبة من غيره مما ينفر المدرسين الأكفاء من التدريس فى تلك المرحلة .

ثانيهما : عدم تقدير الجهات المعنية لجهود مدرس المرحلة الإبتدائية فمن الواجب أن ننظر إليهم بكل تقدير واحترام ، وأن ترصد لهم الجوائز القيمة والحوافز الدافعة لبذل أقصى الجهد فيما يقومون به من الأعمال الجليلة فإن ذلك كفيل بأن يجعل المربى يتفانى فى عمله ، ويقوى نفسه بالوسائل المعينة إذا كان ضعيفا .

فالمربى الناجح هو الذى لايعنف الصبى على خطأ وقع منه ، ولا يقسوا عليه فى اللوم والعتاب ، لأن التعنيف واللوم يبلدان الحس ، ويقتلان الوجدان ، ويولدان العناد ، وحينئذ يكثر الخطأ المتعمد تعبيراً عما يعانيه الصبى من الشعور بعدم الاحترام والتماس الأعذار ، ويظهر ذلك كنوع من التحدى للنظم والقوانين والمربين .

إن الرفق بالمخطىء والتغاضى عن الخطأ ، والتوجيه غير المباشر مع إشعار المخطىء بإدراكنا لما وقع ، كل ذلك يساعد على تلافى الأخطاء فى المستقبل ، ويعين على تحرى الصواب بقدر المستطاع .

ومن المعلوم أن الخطأ من طبيعة الإنسان وهو أكثر حصولا من الذين

يعملون ، ويتحلون بالحيوية والنشاط ، فأما الموتى فلا يقع منهم خطأ ، لأن صلتهم بالحياة وبالعمل قد انقطعت ، وأما الكسالى والخاملون فهم قليلو الخطأ ، لأنهم أقرب إلى الموتى منهم إلى الأحياء وليس العيب فى أن يخطىء الإنسان ، ولكن العيب فى الإصرار على هذا الخطأ ، قال تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يَغفِرُ الذنوبَ إلا الله ، ولم يُصروا على مافعلوا وهم يعلمون ﴾ (١)

فالخطأ واقع لامحالة من الإنسان ، ومعالجته تكون بحكمة المربى وحسن تصرفه ، فليعلم المربى أنه فى معالجة الخطأ الحاصل من الصبى كالطبيب فى معالجة المرض ، وليعلم المربى أن الخطأ فى التوجيه أشد ضررا على الإنسان من الخطأ فى العلاج ، فالخطأ فى العلاج أقصى مايؤدى إليه الموت ، وفى الموت راحة للمريض من معاناة الآلام ، أما الخطأ فى التوجيه والتربية فأدنى مايؤدى إليه انحراف فى السلوك ، وتمرد على العادات والتقاليد ، وتدمير لكل القيم من الأخلاق والفضائل ، ولاشك أن الموت أهون على الإنسان من حالات الانحراف ، وماتؤدى إليه من العصيان والتمرد مما يجعل الإنسان منبوذا فى مجتمع كان ينبغى أن يكون فيه محترما موقرا ، وذلك لأن الميت كلما ذكره الإنسان يتبعه الرحمة ، أما المنحرف المتمرد فكلما ذكره الناس يتبعونه اللعنة .

لهذا يجب على المربى أن يتغاضى عن الأخطاء التى تقع لأول مرة ولايشعر المخطىء بأنه رأى أو سمع شيئا ، ثم يأخذ فى العلاج رويدا رويدا وبرفق ولين ، ولايضخم الخطأ الصغير ، ولايحقر ويهون من شأن الخطأ الكبير بل يجب أن يعطى كل خطأ حجمه الطبيعى ، لأن تضخيم الخطأ الصغير يؤدى إلى الشعور بالذنب ، وتحقير الكبير يؤدى إلى التهاون والجرأة على ارتكابه ولكلا الأمرين انعكاسات خطيرة على النفس والسلوك .

أما إعطاء كل خطأ حجمه الطبيعى فإنه يسهل العلاج ، ويعجل بالبرء ويعطى

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٥ .

للإنسان فرصة التأمل والتفكير فيما ارتكب فيبدأ مع نفسه بالعلاج والمصالحة معا ، ويعينة حينئذ المربى بطريقة إيجابية تشعر المخطىء بخطئه دون أن يجرح مشاعره أو يندد بإحساسه ، وذلك يكون بضرب الأمثال وسرد القصص ، والثناء على الذين يتحرون الصواب ، ومدح الذين يبادرون بالاعتذار إذا وقع منهم خطأ .

هذا أسلوب الإسلام فى معالجة الخطأ ، وهكـذا كان يفعـل رسول الله ـ ﷺ ـ إذا رأى خطأ ، أو حصل مايقتضى التوجيه ، فإنه عندئذ يعرض ولايصرح ، وينصح ولايجرح ، وكان يوجه المسلمين إلى ذلك بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « عليكم بالرفق ، فإنه مادخل شيئا إلا زانه ، ولانزع من شيء إلا شانه » وبقوله : « إن الله تعالى يحب الرفق فى الأمر كله »[1]

روى الشيخان أن عمر بن أبى سلمة أكل مع رسول الله ـ ﷺ ـ فطاشت يده فى الوعاء فقال له : « ياغلام ، سم الله ـ تعالى ـ وكل بيمينك وكل مما يليك »[2] بهذه الكلمات الرقيقة علمه رسول الله ـ ﷺ ـ آداب الطعام ولم يعنفه ، ولم يشتد عليه فى اللوم . مع أن مثل هذا الفعل تتقزز منه النفس ، ويعافه العقلاء ، ولكن الرسول خاطبه خطاب الأب الرحيم ، وعلمه تعليم المربى الواعى ، وأدبه تأديب المعلم الفاهم .

ولما أراد بعض الصحابة الانقطاع للعبادة ، والرغبة فى التبتل ، وهم لايريدون بذلك إلا مزيدا من الأجر والمثوبة ،

فقال أحدهم : أما أنا فأصوم ولا أفطر ،

وقال الثانى : وأما أنا فأقوم ولا أنام .

وقال الثالث : وأما أنا فلا أنكح النساء .

وبلغ الخبر رسول الله ـ ﷺ ـ فخشى أن يفشو التبتل فى أمته ، وهذه الأمة أمة جهاد ونضال لا أمة تبتل وعزلة لهذا اشتد على رسول الله ما تحدث به

---

(١) رواه البخارى .

(٢) متفق عليه .

أصحابه ، فقام فى الناس خطيبا يبين منهجه ، ويوضح خطته ، ويعلم المسلمين جميعا ماينبغى أن يتبع فى العبادة من الرفق بالنفس ، وعدم المغالاة ولو كان ذلك فى أبواب الخير .

ووجه رسول الله ﷺ خطابه للناس كافة دون أن يذكر اسم أحد منهم ، مع علمه بهم وبأسمائهم ، لأن فى ذكر الأسماء تجريحا لايفيد عند النصح ، فقال ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ « مابال أقوام قالوا كذا وكذا ، أما أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأنكح النساء وهذه سنتى ، ومن رغب عن سنتى فليس منى » (١)

وقصة الأعرابى الذى بال فى مسجد رسول الله ، وهم الصحابة بدفعه وزجره ، فمنعهم ـــ ﷺ ـــ وقال : « دعوه ، وهريقوا على بوله سَجْلا من ماء أو ذنوباً من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين » (٢)

ذلكم هو منهج رسول الله ـــ ﷺ ـــ العملى فى التربية والتقويم ، وهذا المنهج يشمل جميع أفراد الأمة الذكور منهم والإناث على حد سواء ، فقد كان ـــ ﷺ ـــ يعلم الإناث كما يعلم الذكور ، وقد طلب منه النساء أن يخصهن بيوم يعلمهن فيه فاستجاب ، وحدد لهن مكاناً وزماناً يلتقى بهن فيه . (٣)

ويقول – عليه الصلاة والسلام – : « أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران »(٤) والحديث ينص على تعليم الإماء ليكون تعليم الحرائر من باب أولى ، هكذا يهتم الإسلام بالتعليم ، ولايفرق بين الذكر والأنثى ، ولابين الأحرار والعبيد لأن الإسلام لايعرف نظام الطبقات ، فالناس جميعا فى نظر الإسلام سواء ، ولكل

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخارى .

(٣) رواه البخارى .

(٤) رواه البخارى .

منهم دوره فى بناء المجتمع .

وعلينا أن نلاحظ أن العلوم التى يتلقاها أبناؤنا فى تلك المرحلة يجب أن تكون شاملة تتناول الجوانب المختلفة فيهم ، فينشئون أسوياء لا يطغى جانب على جانب ، فلابد من العلوم الشرعية التى يعرف بها الحلال من الحرام ولابد من التوجيهات الروحية التى تولد فى قلوبهم خشية الله والخوف منه ومراقبته فى كل الأحوال ، ولابد من التدريبات العقلية التى تنمى مواهبهم ، وتشحذ ذكاءهم ، وتعدهم لحل المشكلات ، والتغلب على المعضلات ، ولابد كذلك من توجيههم الوجهة العملية التى يكتسبون بها بعض الأصول المهنية لكى يستعينوا بها على مايواجههم من العقبات ، ولابد أخيراً من التدريبات الرياضية التى تنشط أجسامهم ، وتقوى عضلاتهم ، وتعدهم ليكونوا رجالا قادرين على القيام بواجبهم نحو دينهم ووطنهم .

ومن أهم مايجب أن يدرب عليه الصبى فى تلك المرحلة الإعداد النفسى وذلك بأن يقص عليه المربى قصة الحياة كاملة ، ومايطرأ على الإنسان من التطورات التى لابد منها ليقطع رحلة الحياة ، ويصل إلى نهايتها وعلى المربى أن يلمس معه مراحل تطور الحياة ، بهدوء وحذر حتى لا يخاف من مواجهتها من ناحية ، ولايفاجأ بها من ناحية أخرى ، وبذلك يستعد الصبى نفسياً لاستقبال مايجد فى حياته من التغييرات فلا ينزعج منها ، ولاتقلقه تلك التطورات .

ولابد هنا من محاولة ملء الفراغ ، وإيجاد الصحبة الطيبة ، والأصدقاء المخلصين الذين يسددونه إذا زل ، ويقومونه إذا انحرف .

هكذا يجب أن يهيأ الإنسان وهو لايزال فى المرحلة الثانية ليستطيع استقبال مرحلة المراهقة وقد تسلح بما يعينه على اجتيازها بأمان وسلام .

المرحلة الثالثة :

من المعلوم أن نهاية المرحلة الثانية متداخلة فى بداية المرحلة الثالثة ، وهذه المرحلة الثالثة هى المعروفة بمرحلة المراهقة التى هى أخطر المراحل وأعنفها فى

حياة الإنسان ، وليست خطورة هذه المرحلة كامنة فى أنها تعقب مرحلة الهدوء النفسى والاطمئنان القلبى التى يعيشها الصبى قبلها ، وليست خطورتها كامنة فى أنها مرحلة انتقال يجتازها الصبى ليصل إلى مرحلة تتطلع إليها نفسه وهى مرحلة الرجولة وإثبات الذات .

ولكن خطورتها الحقيقية فى أنها مرحلة يحدث فيها كثير من التغيرات الجسمية والنفسية التى تطرأ على الإنسان ، ويفاجأ بها مفاجأة لم يسبقها شيء من المقدمات أو الإنذارات ، فتثير فى نفسه كثيراً من الأسئلة الملحة التى تحتاج إلى إجابات صحيحة وسديدة حتى لاتؤدى إلى الاضطراب الفكرى والتوتر العصبى .

إن التغييرات النفسية تحدث عند المراهقين خللا فى التصور فهو يرى كل شيء حسبما يتصوره هو ، ويتعامل مع كل الناس على أنه فى مستواهم الفكرى والإرادى ، كذلك التغييرات الجسمية تترك فى نفسه كثيرا من الزهو والعجب ، فهو يرى أنه قد بلغ مبلغ الرجال وليس لأحد أن يتدخل فى تصرفاته الشخصية ، ولكنه لم يكد يشعر بهذا الزهو ، ويدل بعجبه وتيهه حتى تتزاحم فى فكره تلك التساؤلات الملحة ، والتى لايجد لها إجابة مقنعة ترضى بها نفسه .

وذلك مثل : كيف ستواجه الحياة الجديدة التى أنت مقبل عليها ؟ هل ستستطيع الحصول على المال الذى يسعدك فى حياتك ، هل ستجد الزوجة التى تتخيلها ؟ هل ستجد المسكن الذى تتمناه ؟ وهل ستتمكن من تأثيثه تأثيثا فاخرا كالذى نراه فى المعارض ؟؟ إلى غير ذلك من الأسئلة

عندئذ تنحصر تصوراته فى تلك الأسئلة باحثا عن الإجابة وحينئذ ينكمش زهوه ، ويتقلص عجبه حتى يكاد يتلاشى ، ويظل جامدا لايريم ، ويتعطل ذهنه ، ويتوقف تفكيره ، ولكن غروره يهون عليه الصعب ، ويقرب له البعيد ، ويقتحم دون أن يستعد للاقتحام ثم يصدم بالأمر الواقع فإذا كل ذلك أحلام من أحلام اليقظة ، لاحيلة له فى الانقطاع عنها .

والمراهقة هى بلوغ الذكر حد الرجال ، والأنثى حد النساء ، أو بتعبير آخر هى بلوغ الصبى والصبية حد الحلم ، ومرحلة المراهقة هذه يقف منها المربون مواقف مختلفة ، وينظرون إليها بحذر ودقة ، ويعتبرون الدخول فيها بداية المشاكل فى حياة الإنسان بالنسبة لنفسه ولأسرته وبيئته ، بل وللمجتمع الذى يعيش فيه .

إننى أعتقد أن المسألة ليست بهذه الضخامة التى يصورها بها علماء النفس متعاونين مع علماء الاجتماع ، فأنا أومن بأن الموضوع أهون من ذلك بكثير ، وقد ثبت ذلك حين مر كثير من الناس بتلك المرحلة دون أن يتعرضوا لتلك الهزات العنيفة ، ودون أن يكون للقلق النفسي والتوتر العصبى هذا الأثر السيء فى حياتهم .

سبق وقلت : إن خطورة هذه المرحلة ناشئة عن التغييرات التى تحدث للإنسان سواء كانت تلك التغييرات نفسية أم جسمية ، وهذه التغييرات التى تطرأ على المراهق حاصلة لكل فرد لامحالة ، لا ينجو منها إنسان حتى الأنبياء ، ذلك لأنها مرحلة من مراحل الحياة التى يقطعها الإنسان ، وهو فى طريقه إلى المصير المحتوم ، فما دام عمره يمتد حتى يصل إلى هذه المرحلة فهو محل لهذه التغييرات .

وليست هذه التغييرات هى التى تحدث ذلك الخلل فى التصور عند المراهقين ولكن الذى يؤدى إلى ذلك فى الحقيقة هو عدم الاستعداد للدخول فى تلك المرحلة .

لقد مرت أجيال كثيرة قبلنا بتلك المرحلة ، ولكننا لم نسمع بهذه الضجة التى أثارها علماء النفس مرة ، وألفوا فيها الكتب ، وعقدوا لها الندوات وألقوا فيها المحاضرات ، ولف لفهم علماء الاجتماع مرة أخرى ، فكتبوا فيها البحوث ، وأجروا على الشباب التجارب ، وراقبوا حركاته وسكناته وعللوها بما يتناسب مع الأفكار التى يريدون إثباتها .

إن هذه الضجة التي تثار بمناسبة وغير مناسبة حول فترة المراهقة سواء كانت من علماء النفس أم علماء الاجتماع إنما هي ضجة مفتعلة ، وأغلب الظنّ أنهم يريدون من ورائها تبرير مايقوم به الشباب من أعمال منافيه لعاداتنا وتقاليدنا ، خارجة على مألوف بيئتنا ومجتمعنا وكأنهم من وراء هذا التبرير يقولون للشباب دمروا وأفسدوا فلا حرج عليكم ، فأنتم فى مرحلة المراهقة ، ويقولون للآباء والمربين اعذروا الشباب فيما يفعلون فإنهم يمرون بالمرحلة الخطرة الحرجة فى حياتهم .

لايشك أحد فى أن هذه المرحلة قد مر بها كل إنسان منذ خلق الله آدم ، وسيظلون يمرون بها حتى تقوم الساعة ، فلماذا لم نسمع هذه الضجة قبل تلك الفترة التى أسس فيها (فرويد) طريقته للتحليل النفسى ؟ والتى ادعى فيها أن الحياة كلها جنس ، وبالغ فى هذا الادعاء حتى قال : إن الجنس يبدأ مع الطفولة وليس مع مرحلة المراهقة فحسب .

ويعزو فرويد كل العقد النفسية والقلق والاضطراب إلى الجنس حيث يعتقد أن كل طفل يعشق أمه بدافع الجنس ، وأن كل طفلة تعشق أباها كذلك بدافع الجنس ، ويجد الطفل أن أباه يقف حائلا بينه وبين أمه فيكبت العشق فى نفسه ، وكذلك الطفلة ، وهذا الكبت لاينتهى فى النفس البشرية بل يتحول إلى قلق نفسى مستمر لايترك الناس يرتاحون لحظة واحدة .(١)

لم يكن الناس قبل فرويد يعرفون شيئا أخذ صفة البحث العلمى عن القلق والاضطراب في مرحلة المراهقة ، بل كانوا يمرون بها كأى حدث يمر به الإنسان فى حياته التى قد تطول حتى يملها ، وقد تقصر حتى لايدرك كنهها ، فلما جاء فرويد بنظرياته الشيطانية ،وأعطاها صفة البحث العلمى الذى لايختلف فيه اثنان ، أخذ من جاء بعده يقلده فيما جاء به ، وراحوا يطورون النظرية ، ويضيفون إليها ويحذفون منها حتى تقبلها الناس قاعدة مسلمة لايشكون فيها ،

---

(١) التطور والثبات ص ٤٨ ، ٤٩ .

بل كان أولئك الذين يشكون فى صحتها يخافون المجاهرة بشكهم فيها وعدم اقتناعهم بها حتى لايتهموا بالجهل والقصور عن إدراك تلك المسألة التى أصبحت فى عقول الناس حقيقة لايمكن تجاهلها .

ونحن إذ ننكر تلك الضجة المفتعلة لاننكر أثر التغيير الذى يطرأ على الإنسان حين يصل إلى مرحلة المراهقة ، ولاننكر كذلك ماقد يتعرض له الشباب فى تلك المرحلة من الانحراف والتردى ، ولكننا ننكر أن تكون المرحلة نفسها هى سبب كل ذلك ، لأننا نعتقد أن سبب الانحراف وماقد يترتب عليه من القلق والاضطراب إنما يرجع فى الحقيقة إلى عدم الاستعداد لمواجهة تلك المرحلة ، ويرجع كذلك إلى ترك الشباب يستقبل مرحلة البلوغ والمراهقة بغير سلاح يدرأ به عن نفسه غائلة تلك الحيرة القاتلة .

إن فرويد ومن تابعه عملاء لليهود يسخرونهم لإشاعة هذه النظرية بين الناس حتى يتجرأ الشباب على الفساد ، ويقتحموا أبوابه غير هيابين ، وعند ذلك يسود التحلل من القيود ، ويشاع الفسوق فى كل المجتمعات ، فيسهل على اليهود التسلط والسيطرة كما هو حاصل الآن .

جاء فى بروتوكولات حكماء صهيون التالى التالى : (يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان ، فتسهل سيطرتنا ، إن فرويد منا وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لايبقى فى نظر الشباب شىء مقدس)

وإذا كان الأمر كذلك فحرام أن نترك شبابنا لعبة يعبث بها فرويد ومن على شاكلته ، بل يجب علينا أن نهيىء الشباب فى المرحلة السابقة لاستقبال هذه المرحلة بنفس هادئة ، وقلب مطمئن، وواقعية صادقة ، ووعى كامل ، حتى يدرك أبعادها ويواجهها بشجاعة ، ويجتازها فى هدوء ، فمرحلة المراهقة من أهم المراحل التى يجب العناية بها ، لأنها المرحلة التى تتحدد فيها شخصية الإنسان ، وترسم فيها قواعد سلوكه .

ومن الواضح أن كل مايحدث فى هذه المرحلة من الاضطرابات النفسية ، والتوترات العصبية ، والانحرافات السلوكية إنما هو نتيجة حتمية لهول المفاجأة التى تذهل الإنسان ، فالصبى يفاجأ بتغييرات نفسية وجسمية لم يستعد لها من قبل ، فبينما هو فى حالة نفسية هادئة ، وأوضاع جسمية رتيبة ، يفجؤه بين عشية وضحاها ذلك التغيير الذى يهز كيانه هزاً عنيفاً يغير كل شيء فى حياته .

إننا لو تصورنا إنساناً يسير فى طريق آمن لايتوقع فيه ما يخيف أو يفزع ، ثم هاجمه فى هذا الطريق وحش كاسر هدد أمن الطريق ، وأشاع الفزع والرعب فى قلوب سالكيه ، إننا لو أدركنا حقيقة هذا الأمر ندرك بسهولة حال الصبى وهو ينتقل فجأة وبغير استعداد إلى مرحلة المراهقة .

ولو علمنا أن ذلك الإنسان نفسه علم بوجود ذلك الوحش فى الطريق الذى سيسلكه فاستعد لذلك ، وهيأ نفسه لملاقاته فلاشك أنه يكون أكثر ثباتا ، وأقوى عزيمة للتغلب على ما يفاجئه .

تلك حقيقة مجربة ، لايمارى فيها إلا جاهل مكابر .

ومن أجل هذا كانت عناية الإسلام بالشباب ، وإرساء قواعد البناء قويه صلبة ، ومن أهمها قاعدة التوازن التى تمكن الشاب فى مستقبل حياته من التغلب على كل المشكلات التى تصادفه ، وتمنحه القدرة التى يواجه بها ماسيحدث من التغييرات النفسية والجسمية ، فلا يشعر بتلك الهزة العنيفة التى تسبب الانزعاج له ولأسرته ومجتمعه .

والحقيقة التى لاينكرها أحد هى أن أعنف مايواجه المراهق هو ذلك الإلحاح الجنسى الذى لا يستطيع مقاومته أحيانا ولا يستطيع التخلص منه أبداً ، وهذا الإلحاح الجنسى فطرة فطر الله الناس عليها ، وأودعها الجنسين ـــ الذكر والأنثى ـــ لإعمار الكون .

فنزعة الذكر إلى الإنثى ، وميل الرجل إلى المرأة هو الوسيلة الوحيدة للمحافظة على بقاء النوع وإعمار الكون ، ولولا ذلك الميل الفطرى فى الرجل

والمرأة لما ائتلفا ، ولحل محل الميل والألفة النفرة والخلاف ، ولو لم يكن ذلك الإلحاح الجنسي لما كان هناك نسل ولا إنجاب ، ولأدى ذلك إلى فناء النوع ، وانقراض النسل ، ولأقفرت الأرض من الجنس البشرى .

فالميل الجنسي بإلحاحاته التى لاتفتر ولاتنتهى هو حقيقة هامة فى حياة البشر ، خلقها الله فيهم لإعمار الأرض ، وإثرائها بالجنس البشرى ، قال ــ تعالى ــ ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ (١)

وعلى هذا فلا يجوز مطلقا أن نفهم الميل الجنسى على أنه جريمة يقترفها الإنسان فى غفلة من ضميره ، ولاينبغى أن نجعل ثورته وإلحاحه ضربا من الإفساد والعربدة ، وعلينا أن نعلم آن الاضطراب العصبى والقلق النفسى ليس سببهما وجود الميل الجنسى فى الإنسان ، وإنما هما ينشآن عن أحد أمرين : آحدهما الكبت الشديد الذى يكون نتيجة للرهبنة وضروبها المختلفة كالتصوف المتزمت ، والرياضة الروحية المسرفة ، وثانيهما إطلاق الميل من غير تهذيب ولاتقويم ، ولعل هذا الأمر الأخير هو السبب فى كثرة المصابين بالاضطراب والقلق فى البلاد التى لم تقوم السلوك الجنسى ، وأطلقت له العنان يأخذ حظه متى شاء وكيف شاء .

والملاحظ كذلك أن نسبة هذه الأمراض بدأت تزداد فى البلاد التى قلدت بدون وعى ، ومَشَت فى طريق الانحلال بغير قيود .

أما البلاد التى تمسكت بمبادئها ، وحافظت على عاداتها وتقاليدها فإنها أبعد ما تكون عن هذه الأمراض ، بل إنها لم تعرف فيها إلا كأشياء شاذة لاتلفت الأنظار ، ولاتسترعى الانتباه إلا بقدر ظهورها فى المجتمع الذى توجد فيه .

لقد أثبتت التجارب أن أسلوب الإسلام فى تهذيب الغرائز ، وتقويم السلوك ، وإرساء القواعد التى يقوم عليها المجتمع هو الوسيلة التى ثبت نجاحها فى القضاء على كل مايمكن أن يتطرق إلى المجتمع الإسلامى من الاضطراب

---

(١) سورة هود الآية ٦١ .

والقلق والانحراف .

إن الإسلام لاينكر إلحاح الميل الجنسي ، ولكنه يعترف به وسيلة من وسائل الإعمار ، والتطور الحضارى ، وإيجاد الروابط القوية بين أفراد المجتمع الإنسانى .

والإسلام لايستنكر من الشباب أن يكون فيهم الميل الجنسى الملح ، ولكنه يرشّده ويهذبه ، ويوجهه الوجهة الصحيحة التى من أجلها أودعه الله فى الإنسان .

والإسلام لايرى فى ميل الذكر إلى الأنثى ، ورغبة الأنثى فى الذكر عيبا يجب أن يقاوم ، بل يرى فيه فطرة الله ، فيفسح لها المجال لينمو ذلك الميل فى كلا النوعين ، فيأمر بالزواج المبكر ، وييسر مؤونته على الشباب ليتمكنوا من إعفاف أنفسهم ، ويطردوا بذور الشر من قلوبهم .

كيف واجه الإسلام مشكلة المراهقة :

لقد واجه الإسلام مشكلة المراهقة كواقع وحقيقة لاتنفك عنها حياة الناس ، والأحاديث الشريفة قد وضعت الحلول المناسبة لتلك المشكلة التى حيرت علماء النفس والاجتماع روى البخارى ــ رحمه الله ــ عن علقمة ــ رضى الله عنه ــ قال : كنت مع عبد الله ــ يعنى ابن مسعود ــ فلقيه عثمان ــ رضى الله عنه ــ بمنى فقال : ياأبا عبد الرحمن ، إن لى إليك حاجة فخليا .
فقال عثمان : هل لك ياأبا عبد الرحمن فى أن نزوجك بكرا تذكرك ماكنت تعهد ؟

فلما رأى عبد الله أن ليس له حاجة إلى هذا أشار إلىَّ فقال : ياعلقمة ، فانتهيت إليه وهو يقول : أما لئن قلت ذلك ، لقد قال لنا النبى ــ ﷺ ــ « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »

إن هذا الحديث الشريف يرسى للمسلمين قاعدة هامة من قواعد البناء فى

المجتمع ، ويصف الدواء الناجع لمشكلة من أعوص مشكلات المراهقة ، ذلك لأن طغيان الجانب الجنسى هو سبب كل المشكلات أو جلها لما يتميز به من العنف والتسلط على الإنسان حتى إن المرء ليغامر فى سبيل إشباع رغباته الجنسية ولو أدى ذلك إلى التضحية بالنفس والنفيس .

إن سيطرة الشهوات على النفس البشرية تدفعها للمغامرة وتسلط النزعات الجنسية عليه يسوقه إلى ارتكاب أبشع أنواع الفوضى التى تقلق المجتمع ، وتدمر قواعده ، لهذا كان من أهم الأسس لضمان سلامة المجتمع توجيه النزعات الجنسية ، وترشيدها حتى تسلك بالإنسان السبل القويمة التى تشبع رغباته بغير اعتداء ، وتكفكف نزواته فى هدوء وثقة .

وليس هناك سبيل تصل بالشباب إلى هذا المستوى إلا الزواج المبكر وليس هناك وسيلة من وسائل التربية الصحيحة تؤدى تلك المهمة غير المعاشرة الحلال ، حيث يمارس المرء ما أودعه الله فيه من الغرائز وهو مطمئن القلب ، راضى النفس ، لايطارده شبح الجريمة ، ولايؤرقه خوف عقاب يحل به إن عاجلا أو آجلا .

وبهذا الأمان ، وبذلك الرضا تنحل جميع العقد النفسية ، وتزول تلك التوترات العصبية ، ويصبح الشباب فى المجتمع سواعد قوية تبنى ولا تهدم ، وتعمر ولاتدمر ، ويستطيع الشباب بذلك أن يجتاز مرحلة المراهقة دون أن نشعر بأية مشكلة تهدد سلامة المجتمع وأمنه أو تعرضه للفزع والاضطراب .

ومن أجل هذا كان النداء النبوى الكريم « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج » إن هذا النداء الحبيب إلى القلوب المؤمنة يوقظ فيها معانى الخير ، ويدلها على سبيل الرشد ، ويوجهها إلى الطريق الأقوم لمعالجة أعوص المشكلات فى حياة الشباب ويرشد فيها الغرائز الثائرة التى لاسبيل إلى تهذيبها إلا بإشباعها عن طريق يضمن لها الاطمئنان ، ويكفل لها عدم المؤاخذة سواء كانت تلك المؤاخذة منبعثة من داخل الإنسان — أى من ضميره — أم من خارجه كغضب المجتمع ، أو تعرض الإنسان للعقاب الذى ينتظره فى الآخرة

مهما أفلت من قبضة القانون والنظم الوضعية فى تلك الحياة .

الرسول ــ ﷺ ــ يهيب بالشباب ، بل يكاد يصل بهم إلى حد الإلزام متى توفرت لديهم الإمكانات التى يستطيعون بها الوصول إلى حياة زوجية كريمة ، ذلك لأن المعاشرة الزوجية هى الوسيلة الوحيدة لإشباع الرغبات الجنسية مع ضمان الاطمئنان وهدوء البال .

أما إشباع الرغبات عن طريق غير مشروعة فإنه يسبب مشكلات لاقبل للمجتمع بها ، وإن أول وأخطر هذه المشكلات هو الشعور بعقدة الذنب التى تجعل الإنسان فى قلق دائم واضطراب مستمر .

ولقد حاول كثير من المفكرين وعلماء النفس أن يجدوا للشباب مخرجا من تلك العقدة اللعينة ، فوضعوا حلولا لم تزد العقدة إلا تعقيداً وذلك حين هونوا من شأن الجريمة ، وخففوا من آثارها ، ولكن هذا الحل لم يكتب له النجاح لأن عقدة الشعور بالذنب كانت أرسخ فى نفس الإنسان من هذا الحل ، وأسبق إلى شعوره منه .

إن الشعور بالذنب الذى يرتكبه المذنب فطرة فطر الله الناس عليها وماكان للتهوين من شأن الذنب ، ولاللتخفيف من آثاره أن يهدىء من روع المذنب لأنه يعلم أنه ارتكب ذنبا ووقع فى خطيئة ، وأن المفكرين والفلاسفة ليس من حقهم أن يحللوا الجرائم أو يبيحوا المحظورات وأن تهوينهم من شأن الجريمة ليس إلا مجرد كلام لايستطيع الضمير أن يتقبله لمجرد قولهم بإباحتها .

لهذا فإن عقدة الشعور بالذنب لايزيلها من النفس إلا التوبة النصوح التى تصحبها دموع الندم ، وتشد أزرها العزيمة القادرة على التغيير والتصميم على عدم العودة ، فشعور الإنسان بأن الله ــ عز وجل ــ يقبل توبة التائبين ، ويمحوا بها آثار ما ارتكب من الخطيئة يجعله هادىء النفس ، مطمئن القلب ، لأنه يعلم أن التائب من الذنب كمن لاذنب له .

إن الشعور بعقدة الذنب هذه هو أساس خطورة تلك المرحلة فهى سبب

التوتر الدائم ، وهى سبب القلق المستمر ، وهى فى النهاية تؤدى إلى التجهم للمجتمع الذى لم يحمه من تلك الزلة ، ولم يقدم له العون ليجتاز تلك المرحلة ، فتزداد نقمته على كل ماحوله ومن حوله .

ونتيجة للشعور بتلك العقدة ، وعدم قدرة المراهق على التخلص من آثارها بسهولة ، فإنه يجد فى نفسه كراهية عميقة للمجتمع ، لأنه يرى فيه شبح الذنب الذى ارتكبه متمثلاً فى كل شيء فى الناس الذين سهلوا له ارتكاب الذنب ، وفى وسائل الإعلام التى شجعته وأغرته وفى البيت الذى لم يهتم بتوجيهه ، وفى المدرسة التى لم تسهم فى تقويمه . وإلى جانب هذه الكراهية العميقة للمجتمع ، فإنه يشعر برغبة ملحة فى إزالة كل مايذكره بالذنب الذى اجترحه ، مع رغبة جامحة فى إثبات ذاته ورجولته ، إنه يكره أن يرى مهزوما أمام أى شيء ولو كان أقوى منه ، ويجب أن يكون منتصراً دائماً حتى على نزواته وشهواته بل حتى علي نفسه ، ولهذا فإنه يترجم ذلك كله بالتدمير والاستهتار بالقيم ، والتمرد على النظم ، ويجعل ذلك تعبيراً عن تلك المأساة التى يعيشها الشباب فى تلك المرحلة .

إن العلاج الوحيد لتلك العقدة هو سد الطريق فى وجهها عن طريق المعاشرة الزوجية المباحة شرعا ، أما حدوثها نتيجة لنوع خاطيء من الممارسات الجنسية المحرمة ، فإن ذلك يورث صاحبها الندامة التى تظل تطارده ، ولايمكن أن تزول إلا بالتوبة الصادقة .

لقد أثبتت التجارب أن علاج مشكلة المراهقة يتحقق إذا استطاع الشاب أن يجد الوسيلة التى يشبع بها رغباته ، ويثبت فيها ذاته ، ويحقق من خلالها رجولته دون أن يقترن ذلك بما يعكر صفوه ، أو يكدر حياته ونحن نستطيع أن نحقق له ذلك بالمعاشرة الزوجية المشروعة .

فهو فى معاشرته لزوجته لايشعر بإثم ، ولاتؤرقه خطيئة ، بل هو يستمتع بها وهو يشعر فى قرارة نفسه أنه يمارس حقا أحله الله له ، فيزداد حينئذ سروره ، وتكتمل لذته ، ومما يزيده اطمئنانا وثقة إحساسه وهو يأتى أهله أنه مثاب

مأجور ، ويتذكر فى ذلك قول الرسول — ﷺ — « وفى بضع أحدكم صدقة »

قالوا : يارسول الله ، أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟

قال : « أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر » (١)

فالإنسان هنا يضاجع امرأته ، ويشبع نهمته ، ويمارس غريزته وهو فى كل هذا مأجور ، فأية سعادة يشعر بها الإنسان حينئذ ؟ إنها سعادة منبعثة من اطمئنان النفس بالحلال الطيب الذى أباحه الله — عز وجل —

ومن جانب آخر فإن المراهق يحقق رجولته ، ويجد ذاته فى الزواج وذلك حين يشعر أنه رب أسرة ، وقيم عائلة ، ومسئول عن بيت ، فهو إذن كفء لكل الرجال ، وذلك ماينشده ، ويريد أن يحققه .

إن علماء النفس يظاهرهم علماء الاجتماع يؤكدون أن سر هذه العربدة ، وسبب ذلك التمرد عند المراهقين هو جنوحهم إلى إشباع رغباتهم ، ورغبتهم فى تحقيق رجولتهم ، وميلهم إلى إثبات ذاتهم وأغلب الظن أنهم قد نجحوا فى تشخيص الداء ولكنهم ظلوا حائرين فى وصف الدواء .

لم تطل حيرة القوم ، وخرجوا على الناس بحل زاد النار اشتعالا وعادت نتائجه على الشباب وعلى المجتمعات بأوخم العواقب وأسوأ الأوضاع ، وذلك حيث زعموا أن الحل الأمثل هو منح المراهق فرصة يحقق فيها مايريد ، فأباحوا له الجنس ، وسلطوا عليه الأضواء حتى لايستحى الشباب ، ويسروا له ممارسته فى ظل قوانين وضعوها بأنفسهم تحميه من الاعتداء ، وتشجعه على إتيانه .

ولكن هل أصاب ذلك الدواء مكمن الداء ؟

إن كل من ينظر فى العواقب ، ويراقب ذلك التدهور الأخلاقى ويرى ماآلت إليه المجتمعات من انتشار الفساد ، وزيادة التفسخ وعدم وقوف الشباب عند

---

(١) رواه مسلم .

حد رغم ظلام الطريق ، ليتأكد أن فشل هؤلاء فى وصف الدواء كان متوازيا تماما مع تشخيص الداء فلم يلتقيا ، لقد أصبح الدواء فى متناول الجميع ، وأصبح فى استطاعة كل مراهق أن يتناوله فى أى لحظة شاء ، بل أصبح مكفولا لكل من يريد كالماء والهواء ولكنه لم يحقق الغاية التى وضع من أجلها .

لقد كانت النتائج التى أدى إليها هذا العلاج مذهلة للناس ولكنها لم تكن مذهلة لمن وصفوا الدواء ، لأنهم كانوا أدرى الناس بتلك النتيجة ، وأكثر الناس رغبة فى الوصول إليها ، ولكنهم لما فوجئوا بغضب الناس ، وثورة التقاليد ألقوا بالتبعة كاملة على عقدة الشعور بالذنب ، فراحوا يهونون من شأنها ، ويخففون من آثارها .

والحق أن علماء النفس والاجتماع قد جانبهم الصواب حين أرادوا وصف الدواء ، لأنهم نسوا جانبا هاما كان لابد أن يراعى قبل غيره ، وذلكم هو الجانب الروحى .

إنهم بذلك يحاولون معالجة الجسم بعيداً عن النفس ، ومعالجة النفس بعيدة عن فطرتها ، فكان ذلك فى الحقيقة هو سر تأصيل الداء ، وعدم الجدوى من الدواء ، إذ ليس العلاج فى مجرد إشباع الغريزة كما تصور هؤلاء ، ولكن العلاج الحقيقى فى إشباع الغريزة بطريقة مشروعة ، تطمئن النفس إلى مشروعيتها ، فتشعر بالسعادة والأمن وهى تمارسها .

ونحن لانستطيع أن نخدع النفوس بتزيين الحرام ، ولا بإباحته بأبرع الوسائل والأساليب وأكثرها تأثيرا على النفوس ، لأن الفطرة السوية مرتبطة تماما بصوت الضمير ، والضمير هو الحارس الأمين الذى لايستطيع الإنسان رشوته ليسكت أو إغراءه فيغمض عينيه ، وقد منحه الله ــ عز وجل ــ سلطة على الإنسان لينبهه إلى الخطر كلما خالف ، ويبعث صيحات الإنذار كلما وقع فى المعصية .

والضمير فى الإنسان هو الفطرة التى جهزها الله ــ تبارك وتعالى ــ بحاسة تميز بين الطيب والخبيث ، وتفرق بين الغث والسمين ، ولاتخلط بين اللذة

المجردة والسعادة المنبعثة عن الاطمئنان والرضا ، لهذا فنحن لانستطيع كما قلت خداعها .

إن الإنسان وهو يمارس غريزته مع زوجته يشعر بالسعادة والاطمئنان ، فإذا مارسها مع خليلة أو خدينة استولى عليه الفزع ، وسيطر عليه الخوف ، ولولا قوة الدوافع الغريزية التى تتغلب على العقل مافجر فاجر ، ولا عصى فاسق ، لأن المرء حينئذ يحس بأنه لص معتد يسرق أعراض الناس ، ويعتدى على حرماتهم ، فمهما أغلق الأبواب ، ومهما بالغ فى الاحتياط ، فإن صوت الضمير لايفارقه أبداً ، لأنه ينبعث من داخل نفسه .

لهذا يقول الرسول — ﷺ — : (لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن)[1] لأن الدوافع القوية التى يقع المرء تحت ضغطها تستر حقيقة الايمان فى نفسه ، وتتغلب على صيحات الإنذار فى ضميره ، ولكنه مع ذلك يبقى فى صراع عنيف بين حقيقة الإيمان ودوافع اللذة ، وبين صيحات الضمير وضغط الغريزة وذلك الصراع لايفتر حتى فى أثناء ارتكاب الجريمة ، وهذا هو السر فى تكدير الصفو ، وشعور الإنسان بالقلق والاضطراب وهو نفسه السر فى فشل علاج علماء النفس ، وأنه لم يخفف الصراع النفسى والتوتر العصبى بل زادهما تأججا وسعيرا .

ونحن إذا لبينا نداء الرسول — ﷺ — (يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة — أى نفقات الزواج — فليتزوج) نكون قد قضينا على المشكلة من أساسها ، ونكون قد أخذنا بأيدى الشباب إلى حياة هادئة هانئة ، وأنقذناهم من طيش الشباب وحماقة المراهقة .

هذا هو الحل الأول لعلاج ، مشكلة المراهقة طرحه الإسلام على لسان رسول الله — ﷺ — وهو مع كونه علاجا نبويا مباركا فإنه دواء مجرب ،

---

(١) رواه مسلم .

ثبتت فعاليته ، فقد حلت على أساسه مشكلات أعجزت علماء النفس والاجتماع .

وهناك علاج آخر للذين لايملكون مؤونة الزواج ، وهم مع ذلك قادرون على المعاشرة الزوجية ، وذلكم هو الصيام .

إن الصيام يعتبر علاجا للمشكلة الجنسية التى تبدأ بها مرحلة المراهقة ، وهى المشكلة التى تسبب القلق والاضطراب وبسببها تحدث التغييرات النفسية والجسمية التى أشرت إليها ، وقد يقع الإنسان بسببها فى أخطاء توصله إلى الشعور بتلك العقدة الخبيثة عقدة الشعور بالذنب التى تكون محور كل أعمال التدمير والتخريب فى تلك المرحلة .

إن الصوم عبادة قوامها تركيز المراقبة فى قلوب المؤمنين ، وتهذيب المشاعر والسلوك فى حياة الصائمين ، فالصائم يرى ربه فى كل خطرة تلم به ، ويشعر بمراقبته فى كل حركة تصدر عنه ، والجوع والعطش اللذان يحس بهما الصائم يذكرانه بكل ذلك .

إن إدراك الصائم لمراقبة ربه له أكبر فى حسه من أى شيء ، فالجوع يهدده ، والطعام الشهى يطارده ، والعطش يجهده ، والماء البارد بين يديه يغريه ببرودته ، ولكنه مع كل هذا يترك الطعام والشراب لأنه على يقين بأن الله — عز وجل — يسمعه ويراه ، فهو يراقبه ويخشاه ، وليس هناك شيء يستطيع أن ينسيه ذلك لأن للجوع والعطش صوتا قويا يرن فى قلبه يذكره بأنه صائم لله — عز وجل — .

وإذا كان الصوم من الإنسان بتلك المثابة ، يبلغ من قلبه مكانة لاتساميها مكانة ، ويحل من نفسه منزلة لاتعدلها منزلة فإنه ولاشك يكون عصمة للمرء من الزلل والخطأ ، وصارفا له عن الفحش والخنى ، فكيف يجرؤ على المعصية وربه فى قلبه ، أو يرتكب مخالفة وصومه يوقظ مشاعره ؟

وهناك أمر آخر وهام يجعل الصوم علاجا ماديا لتلك المشكلة التى تؤرق المجتمعات إلى جانب أنه علاج روحى على النحو الذى بينته .

إن الصوم يجفف الروافد التى تفتح للشيطان باب الإغراء وتمهد له طرق الغواية ، وإلى هذا المعنى يشير الحديث الشريف « إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم »[١] فعلينا أن نضيق مجاريه بالجوع والعطش ، لأن الطعام والشراب من الدوافع القوية التى تثير الشهوة ، وتحرك كوامن النزعة الجنسية ، وذلك لأن حرارة الغذاء تولد القوة فى الجسم ، وتفتح شرايينه ليتدفق فيها الدم ، وليست الشهوة الجنسية إلا وليدة القوة وتدفق الدم فإذا نحن أغلقنا هذا الباب الذى هو أوسع أبواب الشيطان انحسرت قوته ، وقلت دوافعه ، وأصبح الإنسان قادرا على المقاومة بغير عناء .

ولهذا يرشدنا الرسول ـــ ﷺ ـــ إلى ذلك بقول : (يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[٢]

يقول الحافظ ابن حجر ـــ رحمه الله ـــ وفى الحديث إرشاد العاجزعن مؤن النكاح إلى الصوم ، لأن شهوة النكاح تابعة لشهوة الأكل تقوى بقوته ، وتضعف بضعفه .[٣]

الصوم إمساك عن الطعام والشراب ، وكف للنفس عن تناول مايوسع مجارى الشيطان فى جسم الإنسان ، ففى الصوم إذن قوتان تعينان الإنسان على التغلب على نزعات الشيطان ، ودفع دواعى الشهوة وهاتان القوتان هما : قوة الصيام الروحية التى تصل الإنسان بربه وتشعره بمراقبته له على كل أحواله ، وقوة الصيام المادية التى تضيق مجارى الشيطان فى جسم الإنسان حتى لا يجد الفرصة التى تعينه على تحريك الشهوة ، وإثارة النوازع الجنسية .

---

(١) رواه البخارى .

(٢) رواه البخارى .

(٣) فتح البارى (٩ / ١١١) .

ـ وقد يحصل للإنسان بمجرد الجوع ، مايحصل له بالصيام من تضييق مجارى الشيطان وتخفيف نزعاته ، فلماذا نص الرسول ـــ ﷺ ـــ على الصيام وأغرى به ؟

والحقيقة أن الجوع يفعل ذلك بالإنسان وإن لم يكن صائما ولكنه عندما يتخذ الجوع وسيلة لدفع وسوسة الشيطان وإغرائه يكون قد استعان بالجانب المادى وحده ، وفى الجانب المادى مافيه من ضعف المقاومة ، وعدم القدرة على المواجهة ، فالإنسان حينئذ إذا ألَمَّ به خاطر من الشيطان يستطيع أن يأكل فيقوى نفسه على دوافعها ويعين الشيطان على نفسه .

أما الصائم فإنه يعلم أنه فى عبادة تمنعه من الأكل والشراب طاعة لله ـــ عز وجل ـــ فهو لم يجوع نفسه لتضييق مجارى الشيطان فقط ، ولكنه صائم ومتلبس بعبادة يفسدها الأكل ويحرم صاحبها من ثوابها ، وهو فوق ذلك كله يتقرب بالجوع والظمأ إلى الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ فدواعى المخالفة حينئذ بعيدة الحصول وأسباب المعصية غير متوقعة .

وخلاصة القول أن رغبة الإنسان فى تحرير نفسه من ربقة الشيطان وسيطرته بالجوع فقط قد تضعف ، ويزل صاحبها أما إرادة ذلك عن طريق العبادة فإنه أكثر تحقيقا حيث تمنح العبادة المرء قوة يستعين بها على تحقيق آماله ، والوصول إلى مايريد ، فالصوم جوع وعبادة ، والجوع جوع فقط ، ولاشك أن أثرين أقوى من أثر واحد .

وكما وضع الإسلام العلاج الناجع لتلك المشكلة ، وثبت بالتجربة نجاحه فإنه وضع ضمانات ليظل المجتمع بعيدا عن تلك اللوثة ـــ لوثة المراهقة ـــ ولهذا فإن المجتمعات الإسلامية لم تعرف مشكلات المراهقة إلا بعد أن انصرفت عن المبادىء والضمانات التى وضعها الإسلام .

ومن هذه الضمانات ملء الفراغ فى حياة الشباب ، ولاشك أن الفراغ مفسدة ، فالفراغ يمنح الإنسان فرصة الإفساد والتفكير فى الشر ، وهو الفرصة

التى يتخلل الشيطان منها إلى النفس البشرية فيزين لها الشر ، ويغريها بالفساد، ويصرفها عن الخير ، ولهذا كانت مشكلة الفراغ مشكلة أخلاقية ، ينبغى معالجتها بالتوجيه الروحى الذى يضمن لها الضوابط التى توجهها إلى الخير وتبعدها عن الفساد والشر .

والبرنامج الإسلامى لملء الفراغ يشغل كل أوقات المسلم فلا يكون هناك فراغ نشكو منه ، فهناك الأصدقاء المخلصون والرسول ـ ﷺ ـ يقول : « خير الأصدقاء من إذا ذكرت الله أعانك وإذا نسيت ذكرك » [1].

وهناك القراءة المفيدة التى تثقف العقل ، وتهذب الروح ، وتوقظ القلب ، وهذه نوع من طلب العلم الذى حث عليه الإسلام .

وهناك العبادات التى فرضها الإسلام فالصلاة وتكرارها فى اليوم خمس مرات موزعة توزيعا يشغل طول النهار وجزءا من الليل والمؤمن يبتدىء بها يومه ويظل يترقبها ساعة بعد ساعة وكلما انغمس فى عمله وكادت الأعمال الخاصة أن تقطعه أدركته إحدى الصلوات فيسرع إليها ، ويلبى داعى الله فتتجدد صلته بربه ويبقى هكذا حتى يختم بها يومه ثم ينصرف للنوم وبهذا يظل المؤمن على صلة وثيقة بربه .

وذكر الله الذى أمرنا به الإسلام فى كل الأحوال : بالليل وبالنهار فى السر وفى الجهر ، فى العسر واليسر ، والفرح والترح ، وفى المسجد والسوق عند البيع والشراء ، عند المأكل والملبس ، وعند دخول الخلاء والخروج منه . وعند النوم واليقظة ، وحتى عندما يأتى الرجل أهله .

هذا الذكر بهذه الطريقة لا يفتر عنه لسان المؤمن ، ولا يغيب عن قلبه ، فهو بذلك يعطى النفس شحنة روحية دافقه تشغل كل فراغ الإنسان ، وتحيط الحياة بسياج متين من الخلق الفاضل ، والخلال الحميدة التى تدفع المسلم لبذل أقصى

(١) رواه ابن أبى الدنيا مرسلا بلفظ خير الأصحاب .

جهده لتطهير المجتمع من الرذائل .

وهناك الرياضة البدنية التى تتعاون مع الرياضة الروحية فتقوم سلوكه الشخصى ، وتهذب طباعه ، وتملأ عليه فراغه .

وإذا أضفنا إلى ذلك برنامج الإسلام الاقتصادى الذى يتكفل لكل مسلم بحياة كريمة فيوفر العمل للعاطلين ، ويتولى النفقة على العاجزين وفوق هذا كله فإن الإسلام قد فرض الجهاد ، وحذر من التشاغل عنه ، حتى كان الانصراف عنه إلى أى شيء آخر إلقاء باليد إلى التهلكة ، كل ذلك يجعل حياة المسلم حافلة بجلائل الأعمال ، وليس فيها من الفراغ ما يتناول فيه طعامه .

ومن الضمانات التى وضعها الإسلام لسلامة المجتمع التستر وغض البصر ومن المعلوم بالضرورة أن دور المراهقة ليس خاصا بالرجال ، ولكن كل ما يقال عن الرجال فيه يقال عن الإناث ، ومن فضل الله — تبارك وتعالى — على الناس أن منح المرأة قدرا عظيما من الحياء الذى يعصمها من الزلل والخطأ

ونحن لو لاحظنا الجهد الضخم الذى بذله الأوربيون لإخراج المرأة عن فطرتها ، ونزع برقع الحياء عن وجهها لقدرنا مدى ماكانت تتحلى به من الحياء ، ولولا ذلك الحياء الفطرى فى تركيب الأنثى ، ولولا سيطرته على تصرفاتها رغم إرادتها فى كثير من الأحيان لكانت الحياة غابة منذ خلقها الله ، ولانتكست الإنسانية من بداية الطريق أمام هذا الزحف البهيمى الرهيب كما أصبح حالها الآن .

إن المرأة بطبيعتها مع مافيها من الحياء ، ومع ما تتحلى به من الخجل فتنة لايصبر عليها إلا طبقة خاصة من البشر ، فكيف إذا نزع منها الحياء ، واختفى مابها من الخجل ؟

ولهذا أمرها الله بالتستر ، وعدم التعرض للرجال ، قال — تعالى — : ﴿ يأأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساءِ المؤمنين يُدنين عليهنَّ من جلابيبهن

ذلك أدنى أن يُعَرفن فلا يؤذين ﴾ (١)

فالتستر من شيمة النساء الفضليات ، وهو يورثهن هيبة ووقاراً ، وإن الناس مع مافى أخلاقهم من الانحراف والاعوجاج يجدون أنفسهم مرغمين على احترام المرأة المحتشمة .

والإسلام حينما أمر المرأة بالتستر إنما أراد بذلك أن يضع الضمانات للحفاظ على الجانب الأخلاقى فى المجتمع ، فلا تزال المجتمعات الإنسانية بخير ماالتزم فيها جانب الأخلاق ، ولما أراد الله ـــ عز وجل ـــ أن يحفظ المجتمع من هذا البلاء بوضع نظام الحجاب بدأ بزوجات الرسول ـــ ﷺ ـــ حتى لايظن أحد أنهن مستثنيات من هذا النظام ، وليكون الخطاب لهن خطابا لغيرهن من باب أولى ، قال الله ـــ تعالى ـــ : ﴿ وقرنَ فى بيوتكن ولاتبرجن تَبَرُّجَ الجاهليةِ الأولى ﴾ (٢)

إن إبداء الأنثى زينتها لغير محارمها تعريض للمجتمع للدمار والهلاك وإفساد كل القيم الحضارية التى كافح الإنسان فى سبيلها طويلا حتى حصل عليها ، ولهذا يقول ـــ تعالى ـــ : ﴿ ولايبدين زينتهنَّ إلا ماظهر منها ، وليضربن بِخُمُرهنَّ على جُيُوبِهنَّ ، ولا يُبدين زِينَتَهُنَّ إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بُعولتهن .. ﴾ (٣)

فمن حق المرأة أن تتزين لزوجها ، وأن تفعل ماتشاء منها فى بيتها ولكن الحذر أن تبدى شيئا من ذلك خارج دارها ، لأن ذلك يوقظ فتنة نائمة ، ويحرك أشجانا ساكنة ، حيث يستشرفها الشيطان فتقبل فى صورة شيطان وتدبر فى صورة شيطان ، وماذا ينتظر من فتنة الجمال ، وسهام الزينة ، واستشراف الشيطان إلا التلاعب بقلوب الرجال .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥٩ .
(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٣ .
(٣) سورة النور الآية ٣١ .

ولما أمر الإسلام الأنثى بوضع الحجاب أمر الرجال بغض البصر لأن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، وسهام إبليس كلها طائشة قتالة ، وقد تؤدى النظرة إلى إشعال نار لاتخمد ، وفتنة لاتؤمن عواقبها .

إن الإسلام لايريد من حجاب المرأة الحجر عليها ، ولايقصد من وراء ذلك سجنها وإهانتها كما يدعى أدعياء الفتنة ، وأحلاس المواخير ، ولكنه يرمى إلى إعفافها وتحصينها من جهة ، وإشاعة الفضيلة فى المجتمع وسلامته من عوامل التدهور والانحطاط من جهة ثانية ، والبقاء على أخلاق الرجال من جهة ثالثة .

ومن الضمانات كذلك تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية ، لأن الخلوة تؤجج نار الشهوة فمهما خلا الإنسان فى مجلس كهذا من الناس فإنه لايخلو مجلسه من الشيطان ، والدوافع الجنسية لها سلطتها على النفس البشرية ، حتى إن أتقى الناس وأكثرهم ورعا ، وأشدهم استمساكا بطاعة الله ليخر أمام هذه الغريزة صريعا متى وجدت الخلوة ، وتهيأت الظروف ، وتحركت الدوافع .

فمن المعلوم أن أشرس الغرائز فى المخلوقات كلها بلا استثناء هى غريزة الجنس ، وإنها لأشرس ماتكون ، وأعنف ما تكون فى الإنسان وتلك حقيقة نقف عليها بالتجربة والمشاهدة فإن أنثى الحيوان متى حملت زهدت فى ممارسة الجنس ، بل وقاومته بكل إمكاناتها ، فنراها تمتنع عن الذكور من بنى جنسها ، وتظل كذلك حتى حين لقاحها ، وليس كذلك الإنسان .

والله ــ عز وجل ــ قد أراد للإنسان أن يكون مشبوب الطاقة دائما شديد الرغبة فى ممارسة تلك الغريزة على كل الأحوال ، فالحياة البشرية تختلف اختلافا بينا عن حياة كل المخلوقات ، فهى حياة منظمة مقننة ، لا يباح فيها ممارسة الغريزة الجنسية إلا مع الزوجة الشرعية ، بخلاف الحيوان الذى يمارس طاقاته الجنسية مع إناث بنى جنسه بغير حدود .

فلو أن إناث بنى البشر كن كإناث الحيوانات فى تجنب الذكور بعد الحمل لنشأ عن ذلك فساد كبير ، من أجل هذا أبقى الله الرغبة الجنسية فى الإنسان

مشبوبة عنيفة ، وبخاصة فى الإناث حتى يتمكن الرجال من قضاء أوطارهم بغير تعد ولا إفساد ، وتبقى العشرة الزوجية قائمة على أساس إعمار المجتمع وتكثير الجنس البشرى .

إن الإنسان لايتمكن دائما من السيطرة على غرائزه الجنسية ، بل هو غالبا الذى يقع تحت تأثير ضغطها الملح ، وندائها الذى لايعرف الضعف وكثيرا ما تتنحى القوى العقلية أمام إلحاحها ، وتصغى القوى الأخلاقية لسماع ندائها ، فيتجرد الإنسان من ذلك كله ، ويبقى شبحا هزيلا أمام ميله الذى لايحد ورغبته التى تخطت كل حد .

من أجل ذلك حذر الرسول ـــ ﷺ ـــ من الخلوة أشد التحذير لأن الخلوة هى نفط الغريزة ، وإن الشيطان ليجد فيها مسكنه الذى يأوى إليه ، ومرتعه الذى يغدو ويروح فيه ، وشباكه الفولاذية التى لاتستطيع الفريسة أن تفلت منها مهما كانت قوتها ، أو تتخلص منها مهما كانت حيلتها يقول ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ : « إياكم والدخول على النساء »

قالوا : يارسول الله ، أفرأيت الحمو ؟
قال ـــ ﷺ ـــ : « الحمو الموت » (١)

وهذا التحذير الشديد إنما يكون عند عدم المحرم ، أما إذا كان فى البيت محرم فليس هناك ما يمنع من دخول الأحماء والأقارب ، مع وجوب مراعاة الآداب العامة التى أمر بها الإسلام كغض البصر ، وحفظ اللسان وعدم التدخل فيما لايعنى من شئون البيت ونظام الأسرة وغير ذلك من الآداب وكما حرم الإسلام الخلوة بالمرأة الأجنبية حرم عليها أن تسافر مسيرة يوم وليلية إلا مع محرم ، ذلك لأن السفر فيه من المشقات ما يستدعى أن يطلب المرء معونة غيره ، وفيه من الفراغ ما يحتم عليه أن يشغله بالحديث مع غيره وفيه من الملل والسآمة ما يستوجب أن يخالط الإنسان غيره ليقضى على ما يشعر به من

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد .

الوحشة والعزلة .

والسفر يحتاج إلى المؤانسة ، ولامؤانسة بغير أنيس ، ويحتاج إلى الترويح ولاترويح إلا بما يرتاح إليه الإنسان ، ويحتاج إلى المواساة ولا مواساة إلا ممن تطمئن إليه النفس ، ويميل إليه القلب ، ويسعد به الخاطر ، فإذا سافرت المرأة بغير محرم فعند من تجد هذا كله ؟ فمن تستدعى ليقدم لها العون ؟ ومع من تتحدث لتملأ وقت فراغها ؟ ومن تخالط لتقضى على الوحشة التى تشعر بها ؟

إنها لن تجد ذلك كله إلا عند محارمها ، فإذا سافرت المرأة بغير محرم يرافقها فانها ستضطر إلى شيء من ذلك ، وحينئذ لن تجد سوى الرجال الأجانب وهذا ما يجر غالبا إلى الوقوع فى المحظور .

يقول ــ ﷺ ــ : « لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر ، تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذى محرم عليها » (١)

وليس ذلك خاصا بالمرأة الشابة الجميلة كما يزعم بعض الناس ، ولكنه عام لكل امرأة شابة أو كبيرة ، جميلة أو دميمة ، يقول الإمام النووى ــ رحمه الله ــ : وهذا الذى قاله الباجى لايوافق عليه ، لأن المرأة مظنة الطمع فيها ، ومظنة الشهوة ولو كانت كبيرة وقد قالوا : لكل ساقطة لاقطة .

ثم قال : ويجتمع فى الأسفار من سفهاء الناس وسقطهم من لايرتفع عن الفاحشة بالعجوز وغيرها لغلبة شهوته ، وقلة دينه ومروءته وخيانته ونحو ذلك والله أعلم . (٢)

والإسلام عندما يحرم على المرأة أن تسافر بغير محرم لايريد الحجر عليها ، ولا الحط من قدرها ، ولايتهمها أو يقلل من الثقة بها ، ولكنه يريد المحافظة عليها ، ويقصد من وراء ذلك إظهارها بالمظهر اللائق بها ، فإن خروج الحرس

---

(١) متفق عليه .

(٢) شرح النووى على مسلم (٩ / ١٠٤ ــ ١٠٥) .

والحاشية مع الملك أو الرئيس لايقلل من قدره ، ولايظهره بمظهر الضعف ، ولكنه زيادة فى تكريمه وإعلاء شأنه وإظهار لما يحظى به من الرعاية والتقدير .

ومن أعظم الضمانات التى أكد عليها الإسلام منع الاختلاط ، ونعنى بالاختلاط اختلاط الجنسين بغير ضرورة واجتماع الذكور والإناث فى مكان واحد دون مبرر وتلك عادة دخيلة طارئة على مجتمعنا ، وفدت إلينا مع مازعمه الناس حضارة وتمدنا ، ولقد تمكنت تلك العادة القبيحة فى كثير من البلاد ، وتركزت فى عقول كثير من الناس حتى أصبحت الحضارة والرقى والتمدن لامفهوم لها إلا بالاختلاط .

فالاختلاط عند هؤلاء هو مقياس الحضارة وهو الميزان الذى يوزن به رقيها وتمدنها ، فالحضارة بغير اختلاط ليست من الحضارة فى شيء ، والتقدم بغير المرأة تقدم مبتور مشوه ، ذلكم هو مفهوم الحضارة والرقى ، وهو ولاشك فهم فاسد ، وتصور كالح ، لأن الاختلاط فى الحقيقة فطرة بهيمية ، على الإنسان أن يترفع عنها لأنها لاتليق بإنسانيته .

فللإنسان خصائص ومميزات تسمو به عن مستوى البهائم والحيوانات إن العقل وهو أخص خصائص الإنسان يرفض تلك العادة القبيحة ، ومهما سماها الناس حضارة ، ومهما غلفها المنادون بها بغلاف الرقى والتقدم فإنها عند العقل خصلة ذميمة لاتليق بذى عقل سوى ، ذلك لأن الفطرة السليمة ترفض الشركة فى الخصوصيات فكيف ترضى بها فى العرض وهو أخص الخصوصيات .

وقد أثبتت التجارب أن بعض الحيوانات من الطبقات العليا ترفض أن يخالط زوجاتها غيرها من الحيوانات ، فلو حاول أسد أن يعتدى على أنثى غيره لايجد استجابة من الأنثى ، وتدور بينه وبين زوج هذه الأنثى معركة ضارية لاتنتهى إلا بموت أحدهما .

وإذا كان الأمر كذلك عند بعض الحيوانات فكيف يقبل الإنسان ذلك ، وزوجه هى عرضه وشرفه ، وهى أثمن مايملك فى هذه الدنيا ؟

إن تحريم الاختلاط حماية للعرض ، وصيانة للشرف ، ووقاية للمجتمع من الانهيار والانحراف ليظل مواصلا لمسيرته الطيبة ، وجهوده البناءة لإيجاد الفرد الصالح ، وتكوين المجتمع الإنسانى النظيف .

إن الاختلاط في صوره المختلفة سواء كان ذلك فى التعليم ، أم فى المصانع والمكاتب ، أم فى المركبات العامة يؤدى فى النهاية إلى الوقوع فى المحظور ، ويوقع الأمة فى مشكلات اجتماعية وأخلاقية ، وليس هناك ما يبرر ذلك ويبيحه مهما كان ، لأن كل الضرورات التى يقدمها الإنسان بين يدى الاختلاط ملتمسا إباحتها له ضرورات وهمية لا وجود لها إلا فى خيال ذلك الإنسان المريض الذى يحاول إقناع المجتمعات بقيام تلك الضرورات .

إن الفصل بين الجنسين هو أعظم علاج لهذه المشكلات الأخلاقية والاجتماعية فمن المعلوم أن أحب شيء إلى الإنسان ما منع ، ومن المعلوم كذلك أن النفوس تتطلع دائما إلى المخبأ لتكتنه أسراره ، فإذا نحن حققنا الفصل بين الجنسين نكون قد هيأنا الفرصة للزواج ، ونسعد المجتمع بعلاقات النسب والصهر (١)



(١) يراجع فى الضمانات كتابنا القيادة والجندية القسم الثانى لمزيد من التوسع .



الفصل الثالث

الروابط الدينيـة

علمنا فى الفصل السابق كيف اهتم الإسلام ببناء الفرد المسلم ، وكيف وضع له المناهج التربوية التى تأخذ بيده ، وتقوم سلوكه ليكون فى مستقبله لبنة قوية تصمد للتحديات ، وتسهم فى إقامة المجتمع .

ولما كان بناء المجتمع لايكفى فيه أن يكون أفراده صالحين فى أنفسهم أقوياء فى تكوينهم ، بل لابد أن تكون هناك روابط تقويه وتشد كل فرد فى المجتمع إلى أخيه ، وتربطه به حتى يكون المجتمع كالبنيان المرصوص ، أو كما وصفه الرسول ـ ﷺ ـ « كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

ولايكفى أن تكون هذه الروابط قومية ، لأن القومية صفة خارجية لاتنبع من داخل الإنسان ، بل هى دخيلة عليه حيث لا إرادة له فى اكتسابها ولايكفى أن تكون اللغة ، لأن الإنسان قد يجيد لغة قوم ليس من جنسهم ، بل تضطره إلى اكتسابها ظروف البيئة التى نشأ فيها . ولايكفى أن تكون العوامل التاريخية ، لأن العوامل التاريخية كثيرا ماتتشابه ، ويمر بها أجناس مختلفة لاتربطهم أية رابطة .

إن هذه الصفات لو اجتمعت لاتكفى لأن تكون روابط تحمى المجتمعات من التفكك ، وتحفظها من الخروج على بعضها لأنها كما قلت عوامل مكتسبة ، وليست منبثقة عن النفس الإنسانية ، فقداجتمعت هذه العوامل فى سكان الجزيرة العربية ، ولم تنجح فى تخفيف حدة الغارات ، ولم توقف نزيف الدم الذى سال على أرض الجزيرة أنهارا فى حرب البسوس وداحس والغبراء وفى أيام العرب التى رواها المؤرخون .

كذلك اجتمعت فى بعض بلاد أوربا كأسبانيا ، ولم تخفف حدة التوتر الذى قام بين المسلمين والمسيحيين ولا بين الأرثوذكس والكاثوليك فى عهد محاكم التفتيش البغيضة

فلا بد إذن لإقامة العلاقات المتينة بين أفراد المجتمع من أن تكون هذه العلاقات نابعة من داخل الإنسان ، وقائمة على أسس روحية لاتؤثر فيها العوامل المادية التى هى السبب الحقيقى لاختلاف الناس وتناحرهم .

وتلك الروابط هى الروابط الدينية ، ولهذا فإن الإسلام بعد أن أعد الفرد إعداداً جيداً ربط بين هؤلاء الأفراد بروابط دينية نتناولها فيما يأتى :

١ ــ الأخوة :

يقول الله ــ تبارك وتعالى ــ : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾[1] وهذا الأسلوب الذى عبرت به الآية الكريمة عن الأخوة هو الذى يعرف فى لغة العرب بأسلوب القصر ، فكأن الصفة الوحيدة والجديرة بأن يتصف بها المؤمنون هى صفة الأخوة ، ذلك لأن الإيمان حقيقة تجمع بين قلوب المؤمنين فيصيرون جميعا جسداً واحدا يتأثر كل عضو فيه بتأثر أى عضو منه ، وقد عبر الرسول ــ ﷺ ــ عن ذلك بقول : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »[2]

وهذا التعبير الدقيق ، وهذا التمثيل الرائع يوضح مدى الترابط الذى يكون بين المؤمنين ، فليس الترابط بينهم مجرد صداقة ، ولا هو محض مجاملة ، ولكنه رباط الإيمان الذى عقدته يد الله ــ عز وجل ــ على قلوبهم ، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا ، ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذكُنتُم أعداءً فألف بين قُلوبِكُم

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٠ .

(٢) رواه مسلم .

فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ (١)

إن الرباط الذى يؤلف بين القلوب المتنافرة ، ويستطيع أن يحول العداوة المدمرة إلى أخوة بانية معمرة لهو الرباط الجدير بأن يكون أساسا لتلاحم القلوب وتكاتف الأفراد .

ولهذا كان أول عمل قام به الرسول ــ ﷺ ــ فى المدينة بعد الهجرة هو وضع أساس المسجد والمؤاخاة بين المهاجرين من أهل مكة من جهة وبين أنصار أهل المدينة من جهة أخرى ، ولقد بلغت الأخوة بينهم حد التوارث ، وظل بعضهم يرث بعضا بتلك الأخوة حتى نزل قوله ــ تعالى ــ : ﴿ وأولوا الأرحام بَعضُهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾ (٢)

وكما بلغت الأخوة بينهم حد التوارث فإنها قد بلغت من أنفسهم مبلغا أبعد من ذلك وهو مبلغ الإيثار ، ودرجة الإيثار أعلى قدرا فى النفوس من درجة التوارث ذلك لأن التوارث قد يحصل بين قوم متباغضين لأن أسباب التوريث قائمة بينهم ، وقد تتحقق لأن الله قد فرضها عليهم فأذعنوا لأمر الله ــ عز وجل ــ أما درجة الإيثار فإنها لاتصدر إلا عن قلب محب مخلص فى حبه حتى دفعه هذا الحب وذلك الإخلاص إلى أن يقدم من يحب على نفسه ، ولو كان فى حاجة إلى مايجود به على غيره ولهذا أثنى عليهم الله لإيثارهم .

وفى هذا يقول الله ــ تبارك وتعالى ــ : ﴿ والذين تبوأوا الدار والإيمانَ من قبلهم يُحبونَ من هَاجرَ إليهم ، ولايَجِدونَ فى صُدُورهم حاجةً مما أوتوا ، ويُؤثرون على أنفسِهم ولوكان بهم خصاصة ﴾ (٣)

إن هذه الأخوة لتتجلى فى المجتمع الإسلامى بأجمل صورها ، وأبهى حللها حين يقدم سعد بن الربيع ــ رضى الله عنه ــ ماله إلى أخيه فى الإسلام عبد

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٣ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٧٥ .

(٣) سورة الحشر الآية ٩.

الرحمن بن عوف — رضى الله عنه — ويقول له : يأخى إنك تعلم أنى من أكثر الأنصار مالا ، وهذا مالى قد قسمته نصفين ، فاختر لنفسك أحدهما .

ويمعن ابن الربيع — رضى الله عنه — فى تحقيق معنى الإيثار ، فيحضر زوجتيه ويقول لعبد الرحمن : وهاتان زوجتاى اختر منهما ماتهوى لأطلقها فتتزوجها [(١)]

إن سعدا — رضى الله عنه — وهو يعرض على أخيه كل ما عرض لم يكن مجاملا ولم يكن ذلك عملا دعائيا ، يريد من ورائه كسبا سياسيا أو شهرة ومجدا ، ولكنه كان صادقاً ، كل الصدق ، راضياً كل الرضى ، بل كان يتمنى من كل قلبه لو يستجيب له أخوه فيأخذ نصف ماله ، ويطلب إحدى زوجاته .

وهذه ولاشك تضحية لم يعرف لها التاريخ مثيلا ، ولو قلنا مع القائلين بأن سعدا كان يجامل فقط لأنه كان يعلم أن خلق عبد الرحمن لايسمح له بأن يأخذ شيئا من ماله أو يحرمه من إحدى زوجتيه أفلا يكون مجرد ذلك العرض خلقا حسنا غرسه الإسلام فى نفوس المسلمين يحمدون عليه لما فيه من المواساة والصلة .

ثم إن حالة عبد الرحمن — رضى الله عنه — عندما عرض عليه أخوه سعد ذلك العرض السخى لم يكن فيها مايدل على أنه سيرفض أو يمتنع عن قبوله ؛ فقد هاجر وترك فى مكة كل ماكان يملك وقدم إلى المدينة خالى الوفاض تماما ، كما كان أعزب ليس له زوجة تغنيه عن قبول من عرضت عليه فماالذى دعا سعدا إلى هذه المغامرة وهو يعلم أن أخاه فى حاجة ماسة إلى المال بقدر ماهو فى حاجة ملحة إلى زوجة ؟

إننا لانجد إجابة ترضى عنها النفس إلا أن سعدا كان صادقا عندما عرض على أخيه نصف ماله وإحدى زوجتيه ، كما أنه سيكون راضيا إذا أخذ أخوه ماعرضه

---

(١) رواه البخارى .

عليه .

ولكن ماحقيقة موقف عبد الرحمن بن عوف من هذا العرض المغرى ؟ الحقيقة أنها فرصة ذهبية سنحت لعبد الرحمن عليه أن ينتهزها ، وكما يقول الناس إن مثل هذه الفرصة لاتتاح إلا مرة فى العمر فإذا أفلتت فمتى تعود ؟ فهل كان ابن عوف — رضى الله عنه — انتهازيا لايدع هذه الفرصة تذهب بغير عودة ؟؟

لا ، لم يكن عبد الرحمن كذلك ، ولكنه كان الرجل المؤمن الذى تربى على يدى رسول الله — ﷺ — وصاغته المبادىء الإسلامية الصياغة التى بعث من أجلها رسول الله ، فلم ينتهز الفرصة ، ولم يطمع فى مال أخيه ، ولم تتطلع نفسه إلى إحدى زوجتيه ، بل كان عزُوفا عن كل ذلك ، قانعا بما قدر له ، وقال لأخيه سعد فى رضا واطمئنان : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، وأنا رجل تاجر فدلنى على سوق المدينة .

وماهى إلا أيام حتى مر رسول الله — ﷺ — على عبد الرحمن فرأى عليه أثر الطيب فقال : مهيم ياعبد الرحمن ؟

فقال : يارسول الله ، تزوجت امرأة من الأنصار .

قال : كم أصدقتها ؟

قال : وزن نواة من ذهب .

قال : ياعبد الرحمن ، أولم ولو بشاة (١)

هذه صورة من صور المؤاخاة فى المجتمع الإسلامى ، وهى تعطينا تصوراً واضحاً عن أثر تلك الأخوة فى بناء هذا المجتمع الناشىء ، إنها أخوة عملية ، لا تقف عند حد الكلام ، ولكنها تبرز عطاء سخيا من جانب الموسرين المقتدرين وتقابل بتعفف وزهد من جانب المحتاجين والمعوزين .

---

(١) رواه البخارى .

وما أجمل الموقفين حين يتقابلان ، وما أروع المشهدين حين يبرزان لنا حقيقتين كنا نسمع عنهما دون أن نرى لهما أثراً فى المجتمعات همـا : الإيثار إلى حد لا يصدقه العقل ، والتعفف إلى حد أزهل كل عقل .

إن أخوة الإسلام أغلى عند كل مسلم من أخوة النسب ، ذلك لأن الإيمان هو النسب الحقيقى الذى يعتز به كل مؤمن ، وقد ضرب المسلمون فى ذلك مثلا رواها التاريخ بكل فخر .

هذا مصعب بن عمير ــ رضى الله عنه ــ فى غزوة بدر يرى أخاه عزيزاً أسيرا فى يد أحد المسلمين ، وفرح عزيز حينما رأى أخاه مقبلا لأنه ظن أن مصعبا سيشفع له ، ولكن خاب ظنه حينما سمع مصعبا يقول لمن أسر أخاه : أشدد يدك عليه ، فإن أمه ذات مال ، وقد تفتديه منك بمال كثير .

فقال عزيز : يا مصعب ، أهذه وصيتك بأخيك
فقال مصعب : لست أخى ، إنما هو أخى

٢ ــ المساواة :

المساواة مبدأ من مبادىء الإسلام ، أعلنه القرآن المجيد ، ونادت به السنة النبوية المطهرة ، وطبقة المسلمون فى مجتمعهم فلم يكن هناك سادة وعبيد ، ولافقراء وأغنياء ولا ملوك وسوقه بل كانوا جميعهم متساوين أمام مبادىء الإسلام ونظمه ، كما كانوا إخوة متحابين متعاونين .

يقول الرسول ــ ﷺ ــ : « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل مالا يطيقون ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » [1].

هكذا يعلن الرسول بكل وضوح مبدأ المساواة ، ويخرجه عن حيز النظريات

---

(١) رواه أحمد وأبو داود .

والفلسفات ، ويجعله مبدأ تطبيقيا عمليا ، وتلك ميزة من مميزات الإسلام حيث يجعل مبادئه دائما عملا يترجمة المسلمون فى واقع حياتهم ، فالرسول ـ ﷺ ـ يقرر المبدأ « إخوانكم خولكم » يعنى الخدم الذين يقومون على خدمتكم إخوانكم ، وإلى هنا يكون الإسلام قد صاغ المبدأ صياغة نظرية ، ولكنه لا يكتفى بذلك بل يرسم له الخطة ليصبح عملا ملموسا يحسه الناس فى مجتمعهم فيقول : « من كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم ، وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل مالا يطيقون فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

وفى قوله ـ ﷺ ـ : « جعلهم الله تحت أيديكم » تذكير بنعمة الله عليهم حيث جعل لهم خدما ، ولم يجعلهم خدما ، ولو شاء أن يجعلكم تحت أيديهم لفعل ، فالواجب عليهم أن يشكروا هذه النعمة ، وأن يحمدوا المنعم بها ..

إن شكر هذه النعمة يتمثل فى عدم احتقار أحدكم لخادمه ؛ فلا يتبذه عند الطعام ، ولا يلقى له بفتات مائدته ، وفضلات طعامه ، ولكن ليطعمه مما يأكل منه ، وذلكم هو الشكر الحقيقى لتلك النعمة .

إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، ويحب أن يراك شاكرا لنعمه ، فالذين يعاملون خدمهم معاملة سيئة ، ويهينونهم بالكلمة النابية ، ويحتقرونهم بالمعاملة الرديئة ، ويوقفونهم عند رءوسهم وهم يأكلون ويشربون ، حتى إذا فرغوا من طعامهم تركوا لهم ما تأبى الحيوانات أن تأكله ، هؤلاء كفروا نعمة الله ، وأحلوا أنفسهم دار البوار ، وكيف يكون هؤلاء من المسلمين ، وهم لا يراعون حقوق إخوانهم المسلمين ؟

إن الرسول ـ ﷺ ـ ينهى أن يقول الرجل لخادمه ياعبدى ويأمتى ، لأن العبودية الحقة لاتكون إلا لله ـ عز وجل ـ وذلك حين يقول : (لايقل أحدكم عبدى أمتى ، وليقل فتاى وفتاتى)[1]

---

(١) رواه مسلم .

وفى قول الرجل عبدى وأمتى امتهان لهذا المخلوق الذى أراد الله له أن يكون تحت يدك وإذلال له ، والله — سبحانه — يبغض العبد الذى يهين عباده ويذلهم ، وبخاصة إذا صحب هذا الاحتقار وذلك الإذلال شيء من التكبر ، واستشعار العظمة ، ففى هؤلاء يحق قول الله — تعالى — فى الحديث القدسى : (العظمة ردائى والكبرياء إزارى فمن نازعنى فيهما أخذته ولاأبالى)

وليست المساواة فى الإسلام قاصرة على المسلمين ، ولكن المساواة التى أرسى الإسلام قواعدها هى المساواة التى تشمل جميع رعايا الدولة الإسلامية على اختلاف أجناسهم ومللهم .

فالرسول — ﷺ — يقول : (كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب) (١)
(لافضل لعربى على عجمى ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى) (٢)

فالرسول الكريم يوجه نداءه للناس أجمعين ولم يختص به المؤمنين ولكنه أطلقها كلمة عامة ليدخل فيها كل بنى آدم ، وذلك دليل على أن الإسلام دين عالمى جاء للناس كافة بغير استثناء ، فمن أطاع وتابع دخل فى السعادة الأبدية ، ومن أبى وعصى فقد حرم ودخل فى الضلال والتعاسة .

وهذا هو معنى قول الرسول — ﷺ — : (كلكم تدخلون الجنة إلا من أبى)
قالوا : ومن يأبى يارسول الله ؟
قال : (من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى) (٣)

والإسلام يرد الناس جميعا إلى أصل واحد ، فلا مجال لأن يفخر أحد على أحد ، ولايتكبر أحد على أحد ، فأبوهم واحد ، وأمهم واحدة وأصلهم

---

(١) رواه البزار .
(٢) رواه أحمد .
(٣) رواه البخارى .

التراب ، ففيم الافتخار والتكبر ؟

وإن الإنسان ليعجب من هؤلاء الذين يتكبرون ، ويتساءل عن سبب هذا التكبر ، أفنسى المتكبرون أن أصلهم من هذا التراب الذى يدوسه الناس بأقدامهم ؟ أم نسوا أنهم إخوة لمن يتكبرون عليهم ؟

ويذكرنى ذلك بموقف رجل من الصالحين من رجل ابتلى بالكبر فنسى أصله ، وعمى عن حقيقة ذاته ، لقد نادى الرجل الصالح ذلك المتعجرف فقال : ياعبد الله .

فغضب وقال : أتنادينى ؟ أتدرى من أنا ؟

قال الرجل الصالح : نعم ، إننى أعرف أصلك ونسبك ، وإن شئت أخبرتك .

فقال : أخبرنى .

فقال : أنت فى الأصل نطفة مذرة ، وفى القبر جيفة قذرة وبينهما تحمل العذرة .

حقيقة هذا هو الإنسان ففيم التكبر ؟ وبأى شىء يفتخر ؟ أيفتخر بأصله وهو يعلم أنه نطفة مذرة ، أم يباهى بمصيره وهو لايجهل أنه سيكون جيفة قذرة ، أم يتيه بحاضره وهو يمشى بين الناس يحمل بين جنبيه أقذر مايتأذى منه الناس العذرة (الغائط) وإلى هذا المعنى يشير الرسول ــ ﷺ ــ بتلك الكلمة الجامعة (وآدم من تراب) وهكذا يغلق الرسول الباب فى وجوه المتكبرين ، ويضع أمام أعينهم الحقيقة الداعية إلى التواضع والانكسار ، وهى كونهم خلقوا من التراب الذى يطؤه الناس بأقدامهم فهم فوق كونهم إخوة من أب وأم ولامجال للافتخار بينهم قد خلقوا من أصل لايسمح لمن يعود إليه بأن يتكبر ويفتخر .

ورحم الله الشاعر إذ يقول :

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء
فإن يكن لهم فى أصلهم شرف ... يفاخرون به فالطين والماء

والإسلام الحنيف عند مايرد الناس جميعا إلى أصلهم الذى ينتمون إليه يحقق عمليا معنى المساواة التى هى الرباط الثانى من الروابط الدينية التى تشد المجتمع بعضه إلى بعض .

ومن أجل هذا يعتبر الإسلام محاولة تفضيل بعض الناس أنفسهم على غيرهم أو التظاهر والانتماء إلى غير الأصل الذى خلقوا منه ظاهرة غير طبيعية ، بل هى مرض يحتاج إلى الاهتمام والعناية بصاحبه لإنقاذه من هذا المرض الخبيث .

إن الإنسان إذا حاول أن يظهر بغير حقيقته ، ويتعالى على أبناء جلدته ، ويوهم الناس أنه خلق من غير الطينة التى خلقوا منها فإنه يخدع بذلك نفسه ، ويفسد العلاقات القائمة بين الناس أجمعين ، وحينئذ ينهدم المعنى الجميل الذى يعيش عليه الناس متحابين متعاونين وهو المساواة .

ولما كان العرب فى الجاهلية يكثرون من التفاخر بالأجداد والآباء ويردون إليهم كل مايعتزون به ، يريدون بذلك أن يتفوقوا على غيرهم نهاهم الله — عز وجل — عن هذا الصنيع ، وأمرهم بذكر الله الذى هو المصدر الحقيقى لعزهم وفخرهم .

لقد كان العرب إذا أدوا حجهم ، وقضوا نسكهم ، وقفوا يتفاخرون وينتسبون ، فذكرهم الله بأن مايعملون صنيع غير مقبول ، وأن الأولى أن يذكروا الله الذى أنعم عليهم بنعمه السابغة ، فقال سبحانه — ﴿ فإذا قَضَيْتُم مناسكَكُم فاذكروا الله كَذِكْرِكُم آباءَكُم أو أشدَّ ذكراً ﴾ (١)

فالانتساب إلى أعلى الآباء منزلة ليس مجال التفاضل بين الناس فهو لايرفع خسيسا ، ولايضع رفيعا ، ولهذا يأتى التقرير الحقيقى حين يعلن الرسول — ﷺ — القاعدة الوحيدة التى تصلح للتفاضل بين الناس فيقول : (لافضل لعربى على عجمى ، ولاأبيض على أسود إلا بالتقوى) .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٠ .

فالتقوى هى الميزان الذى يرجحُ كفة بعض الناس على بعض ، وهى الميدان الذى يتبارى فيه أهل الفضل ليحرز الموفقون منهم أكبر قدر ممكن من التفوق على غيرهم ، وهم فى ذلك كله لايريدون شيئا من حطام الدنيا وزخارفها ، ولاينتظرون من أحد جزاء ولاشكورا ، ولكن كل همهم الآخرة ، والتنافس على درجاتها ، والقرآن الكريم يدعوهم إلى التنافس فى هذا المجال الخصب الممرع ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ (١)

ولقد فهم المسلمون هذه الحقيقة ، وعلموا أنهم أبناء أب واحد وأم واحدة ، وأيقنوا أن أصلهم الماء والتراب فقام مجتمعهم على المساواة ولم يفخر أحد على أحد ، وبهذا الفقه الرفيع كتب عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ إلى سعد بن أبى وقاص حين ولاه جيش القادسية فقال :
ياسعد سعد بن وهيب ، لايغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ــ ﷺ ــ وصاحبه ، فإن الله ــ عز وجل ــ لايمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى دين الله سواء ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ماعنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى ــ ﷺ ــ يلزمه فالزمه ، وعليك بالصبر . (٢)

وهكذا علم المسلمون أن النسب الذى يعلى قدرهم ، ويزيد فى شرفهم ويتباهون به على غيرهم هو التقوى ، هو صلتهم بالله عز وجل ــ وليس هناك طريق يوصل إليه إلا هذا الطريق ، ولاباب يؤدى إلى ساحته إلا هذا الباب فتنافسوا عليه .

يقول ــ تبارك وتعالى ــ : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكُم من ذكرٍ وأُنثى وجَعلناكُم شعوبا وقبائِلَ لتعارفوا ، إن أكرَمَكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾ (٣)

---

(١) سورة المطففين الاية ٢٦ .
(٢) الفاروق عمر (١ / ١٤٢) .
(٣) سورة الحجرات الآية ١٣ .

وهكذا تقطع الآية الكريمة على الناس سبيل التفاخر بالأحساب والأنساب والتباهي بالآباء والأجدادا ، وتلك عادة كانت فاشية فى العرب قبل الإسلام كماأشرت إلى ذلك ، فأوقفهم القرآن الكريم عند حدهم ، وردهم إلى أصل واحد ليس بمقدور أحد أن ينتسب إلى غيره ، لأنه حينئذ لايجد من ينتسب إليه .

ولم يكن تقسيم الناس إلى قبائل وعشائر ، وبطون وأفخاذ ، وأسر وعائلات لم يكن ذلك ليفخر كل بالعرق الذى نزعه ، ولاليتميز بنسبه على غيره ، ولكن ليسهل التعارف بين الناس ، ويكون سببا من الأسباب التى تؤدم المودة والمحبة فيهم ، فاتخاذ الناس هذا التقسيم ذريعة للافتخار على غيرهم ، ووسيلة يتباهون بها على من ليس منهم ، إنما هو شذوذ وخروج عما أراد الله بهذا التقسيم .

فالله ـــ سبحانه ـــ يقول : ﴿ وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾ أى ليسهل بذلك تعارفكم وانتماؤكم ، فإن الإنسان إذا انتمى إلى قبيلة معينة يكون ذلك تعريفا له وإخراجا من الجهالة التى قد تصيبه إذا لم ينتسب ، فيقال : فلان من قبيلة كذا ، وفلان من قبيلة كذا ، وبذلك يحصل التعارف .

وفى هذا التعارف تقريب للقلوب ، وإيلاف للنفوس ؛ وتسهيل لمهة القائمين بالأعمال التى تستدعى التعرف على أحوال الناس .

والإسلام بهذا يدل الناس على الطريق السوى الذى يفيدهم فى حياتهم ويقوم مااعوج فيهم من القيم التى ينبغى أن تسود ، لأن الناس لو اتخذوا تقسيمهم إلى شعوب وقبائل ليتنافروا ، وليفخر بعضهم على بعض لفسدت الأرض ، وعمت الفوضى ، وقامت الثورات الطبقية فأهلكت الحرث والنسل كما كان ذلك قبل الإسلام ، وكما هو حاصل الآن .

وقد أراد الله ـــ عز وجل ـــ أن يكون هذا المعنى ـــ المساواة ـــ فى المجتمع الإسلامى واقعا عمليا ملموسا ، فتأتى الرواية بأن رسول الله ـــ

ﷺ ــ أمر بنى بياضة ــ وهم قبيلة من الأنصار ــ أن يزوجوا أبا هند ــ وهو مولى من مواليهم ــ امرأة منهم .

فقالوا : يارسول الله ، أنزوج بناتنا موالينا ؟

فنزلت الآية الكريمة ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ... ﴾

وهكذا يكون مبدأ المساواة في المجتمع الإسلامى مبدأ تطبيقيا لم يقف عند حد النظريات ، فنرى الرسول يزوج ابنة عمته ــ زينب بنت جحش ــ مولاه زيد بن حارثه ، ويأمر بنى بياضة أن يزوجوا مولاهم أبا هند إحدى نسائهم ليتحقق بذلك المبدأ العظيم ــ مبدأ المساواة ــ الذى عجزت الإنسانية عن تحقيقه فى الشرق والغرب على حد سواء .

إن التفاضل بين الناس ليس بشرف القبيلة أو وضاعتها فذلك أمر ليس للإنسان كسب فيه ، ولايستطيع أن يغير شيئا منه ، وليس التفاضل بينهم بالجنس لأنهم لايملكون أن يكونوا إلا كما خلقوا ، وليس التفاضل باللون ، فما حيلة من ولد ملونا ، ومادخله الذى يمكن أن يحاسب عليه ؟ وليس التفاضل بالمال ، لأنه رزق مقسوم لاحيلة للإنسان ولاقدرة له على الزيادة فيه

إن قانون المنافسة فى كل شىء يقتضى أن يكون التنافس فى شىء مقدور لكل المتنافسين ، وذلك الشىء هو التقوى ، لأن التقوى هى الميدان الفسيح الذى يتاح لكل إنسان أن يتنافس فيه مع غيره ، دون أن يكون هناك حدود أوقيود ، فكل إنسان قادر على أن يقدم من أعمال البر والخير ، وأن يبذل فى ذلك من الجهد والوقت أقصى مايستطيع ، وأن يتقرب إلى الله ــ تبارك وتعالى ــ بكل أنواع القربات ، وعلى هذا الأساس ، وفى هذا الميدان يتفاضل المتفوقون ، فيكون أعظمهم عند الله منزلة ، وأكرمهم عند الله مقاماهم الأتقياء والصالحون .

ومن فضل الله ــ تعالى ــ ورحمته بعباده أن جعل القربات وأعمال الخير كلها فى متناول الناس جميعا الغنى والفقير ، والقوى والضعيف ، والذكر والأنثى ، والحر والعبد ، والصغير والكبير ، حتى تصلح لأن تكون ميدانا للسبق والتنافس ، وماكان منها لايستطيعه إلا طائفة معينة من الناس عوض الآخرين عنها

بما يعادلها في الأجر والثواب مما هوفى استطاعتهم حتى تكون المنافسة عادلة ومقدورة للناس جميعا .

فالزكاة مثلا لايقدر عليها إلا الأغنياء ، فجعل للفقراء فى الكلمة الطيبة صدقة ، وفى كل تسبيحة صدقة ، وفى كل عمل يقوم به الإنسان يقدم به معونة لمحتاج صدقة ، حتى التبسم فى وجوه الناس يكون فى عداد الصدقات .

وبذلك تتم المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات ، ويتفاضلون عند الله بالعمل الصالح لاغير .

ولقد طبق الخلفاء مبدأ المساواة بين الرعية ، بغير استثناء ، وفى قصة جبلة بن الأيهم مع الفزارى أعظم دليل على تطبيق هذا المبدأ في المجتمع الإسلامى ، فقد روى المؤرخون أن جبلة بن الأيهم قد أسلم — وكان من ملوك غسان — وقدم المدينة فى خلافة عمر — رضى الله عنه — فأكرمه عمر ، وتلطف معه وخرج عمر حاجا ، فخرج جبلة معه ، وبينما جبلة يطوف بالبيت وطىء إزاره رجل من فزارة فانحل إزاره .

فضرب جبلة الفزارى فهشم أنفه ، واشتكى الفزارى جبلة لعمر ، فبعث عمر إلى جبلة فأتاه .

فقال عمر : ماهذا ؟

قال جبلة : نعم ياأمير المؤمنين ، إنه تعمد حل إزارى ، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف .

فقال عمر : قد أقررت ، فإما أن ترضى الرجل ، وإما أن يضربك كما ضربته .

قال جبلة : ماذا تصنع بى ؟

قال عمر : آمر بهشم أنفك كما فعلت .

قال جبلة : وكيف ذاك ياأمير المؤمنين ، وهو سوقة وأنا ملك ؟

قال عمر : إن الإسلام قد جمعك وإياه ، فلست تفضله بشىء إلا بالتقوى .

ورأى جبلة الجد فى قول عمر ، وأنه لامحالة مساو بينه وبين الفزارى فهرب من الليل

إلى الشام ، وتنصر وعاش فى رحاب قيصر الروم حتى مات هناك .(١)

إن هذا الموقف الرائع من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ له أثره العظيم فى بناء هذا المجتمع ، لقد كان كل مسلم ينتظر ماذا سيفعل عمر فى هذا الموقف الحرج ؟ هل سيتغاضى عما فعل جبلة ــ وهو من هو ــ ليظل على إسلامه ؟ ولو أن عمر فعل لكان له عذر مقبول لدى المسلمين ، وكان باستطاعة عمر أن يتأول ويرضى الرجل بشىء من المال ، وماكان أهون ذلك على جبلة ، ولكن عمر شعر بأنه لو فعل شيئا من ذلك سيفقد المسلمون مبدأ هاما فى بناء مجتمعهم الذى لايزال فى بداية الطريق ، فكان لزاما عليه أن يحقق مبدأ المساواة مهما كانت النتائج .

ترى كيف كان أثر هذ الموقف فى نفوس المسلمين ؟

لاشك أنه حقق لهم أملا كبيرا حيث تأكد كل فرد منهم أنه لن يضيع له حق مهما كان غاصبه ، وأن الدولة لن تحابى الكبار على حساب الصغار .

٣ ــ الحب فى الله :

ومن الروابط الهامة التى حرص الإسلام على تدعيم المجتمع بها المحبة ، والمحبة دعامة صلبة غرسها الإسلام فى نفوس المسلمين منذ اعتنقوه ، وذلك لأنها تشد الناس بعضهم إلى بعض ، وتقوى أواصر المودة بينهم حتى يصيروا يدا واحدة على من سواهم ، ولذلك اعتبرها الإسلام جزءا لايكمل إيمان المرء إلا به ، يقول الرسول ــ ﷺ ــ « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » (٢)

إن الحب فى الله يكون دائما أقوى من أن تنال منه المشكلات ، وأعظم من أن يتأثر بالماديات ، ومهما واجهه من الصعوبات فإنه يبقى فى قلوب المؤمنين

---

(١) الأغانى(١٤ / ٤ ــ ٧)

(٢) رواه أبو داود .

فوق الشبهات ، لأنه من صنع الله ، قال ــ تعالى ــ ﴿ وألَّفَ بين قُلوبهم لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ماألفت بين قُلوبِهم ، ولكن الله ألَّفَ بينهُم ﴾[1]

إن القلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء ، فيصرفها عما يشاء ، ويؤلف بينها كيف يشاء ، والقلوب المؤمنة مذعنة لله ــ عز وجل ــ خاضعة لأمره ونهيه ، فهو ــ سبحانه ــ حبيبها ، وطاعته غاية أملها ، وهى لهذا تحب مايحب ، وتبغض مايبغض ، همها كله فى رضوانه ، وسعادتها فى تحقيق مراده .

ولما كانت المحبة من أعظم الروابط التى تدعم بناء المجتمع رغب فيها الإسلام ، وأجزل المثوبة للمتحابين فى الله ، فهم يوم القيامة على منابر من نور يغبطهم الأنبياء والشهداء ، ويناديهم رب العزة والجلال : أين المتحابون فىَّ ؟ أين المتحابون فىَّ ؟ أين المجتمعون فىَّ ؟ اليوم أظلهم بجلالى يوم لاظل إلا ظلى .

ويوم تدنو الشمس من رءوس الخلائق ، ويسيل عرق الناس حتى يلجمهم ويتمنى كل مخلوق أن ينصرف من موقفه ولو إلى النار لهول الموقف يتجلى عليهم الرب ــ سبحانه ــ فيجعلهم فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله .

إن الحب فى الله له التزامات يستشعرها المتحابون ، منها الإيثار الذى هو أهم علامات الحب فى الله ، وقد برز بوضوح فى معركة اليرموك ، وكانت معركة ضارية تحمل فيها المسلمون أهوالا وشدائد ، فقد كان عدد المسلمين لايتجاوز الأربعين ألفاً ، وكان عدد الروم يتجاوز المائتى ألف ، ودارت المعركة رهيبة ضارية حتى حسمها خالد بن الوليد ــ رضى الله عنه ــ وبعد انتهاء المعركة أخذ المسلمون يتفقدون جرحاهم ، فسمع أحدهم رجلا جريحاً يطلب الماء فأسرع إليه بقدح من ماء ، ولم يكد يضعه على فمه حتى سمع رجلا آخر يطلب الماء ، فرفع القدح عن فمه وقال : اذهبوا به إلى أخى لعله

---

(١) سورةالأنفال الآية ٦٣ .

أحوج اليه منى .

فلما ذهبوا إليه بالماء سمع ثالث يطلب الماء فقال : اذهبوا به إلى أخى لعله أحوج إليه منى .

وتكرر هذا الأمر سبع مرات ، فلما انتهوا إلى السابع آثر به الأول فرجعوا إليه بالماء فوجدوه قد فارق الحياة ، وأتوا الثانى فوجدوه قد فارق الحياة ، وماتوا جميعهم كل يؤثر أخاه على نفسه

الله أكبر ! إن هذ الدرجة من الإيثار لاتكون إلا نتيجة لحب عميق وهذا الحب الذى يصل بصاحبه إلى هذه المرتبة لايمكن أن يكون إلا لله ، لأنه لو كان بسبب عرض من الأعراض لما ضحى صاحبه بروحه ، فكيف يحرص على عرض الدنيا ثم يضحى فى سبيلها بأعز مايملك ؟ إنه لم يحرص على عرض الدنيا إلا ليمتع نفسه بها ، فكيف يزهق نفسه فى سبيلها ؟

ومن علامات الحب فى الله تقديم مرضاته — عز وجل — على كل ماسواها فالمحب إذا كان حبه خالصا لله لايجامل صاحبه على حساب دينه ، بل يسدده إذا أخطأ ، وينصحه إذا حاد ، ولايعينه إن كان ذلك يغضبه أو يرضيه لأن الحب الحقيقى هو الذى يدفع المحب لبذل أقصى الجهد لتحقيق الخير للمحبوب وليس هناك خيرا أعظم من أن تدفع الضر عمن تحب بتسديده ونصحه أما الذين يقرون أصدقاءهم على الخطأ حتى لاتنقطع العلاقات بينهم وأما الذين يشهدون مع أصدقائهم زورا حتى لاينتصر عليهم عدوهم وأما الذين يؤيدون أصحابهم بالحق وبالباطل راجين أن تدوم المودة بينهم فهؤلاء جميعا ألدُّ الأعداء .

لأنهم فى الحقيقة يسببون لأصدقائهم ضررا بليغا كانوا فى غنى عنه لو أنهم نصحوهم وقوموهم .

ثمرة الحب فى الله يجدها الإنسان حلاوة فى قلبه ، حلاوة تورث الإنسان سكينة واطمئنانا ، إنه يشعر بها تسرى من قلبه إلى كل جوارحه ويحس بها ولكنه لايستطيع التعبير عنها ، ولقد أخبر الرسول الكريم — ﷺ — عن ذلك بقوله : « ثلاثة من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب

إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » (١)

وحقيقة الحب في الله تقتضى تمحيص الحب بحيث لايخالطة سبب أو غرض من أغراض الدنيا ، كالقرابة والشركة ، والمصاهرة وغيرها ، بل يكون الحب خالصا لله ، وذلك هو الذى نبه عليه الحديث الشريف ، « وأن يحب المرء لايحبه إلا لله » أى لايكون سبب المحبة زمالة الدراسة ، أو المشاركة فى التجارة ، أو صلة القرابة ، أو وحدة البلد ، أو القومية التى يجتمع عليها الناس اليوم ، لأن ذلك كله ضرب من المشاركة يجعل الحب غير خالص لله — عز وجل — والله — سبحانه — أغنى الأغنياء عن الشركة ، ولايقبل إلا ماكان خالصا لوجهه الكريم .

ومن علامات المحبة الصادقة أن تحب لإخوانك المسلمين ماتحبه لنفسك وأن تبغض لهم ماتبغضه لها ، وذلك لايصدر إلا عن قلب مملوء بالإيمان فياض بالخير ، لايعرف الحقد ، ولا يحب الحاقدين ، وذلكم هو القلب السليم الذى أخبر عنه رب العزة — جل جلاله — حين قال : « يوم لاينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » (٢)

إن حبك الخير لإخوانك دليل على صفاء نفسك ، ونقاء سريرتك ، لأن النفوس البشرية مطبوعة على حب الاحتكار ، فهى لاتريد أن يبلغ امرؤ مبلغها ، ولاتحب أن يصل غيرها إلى ماوصلت إليه . بل تحب أن تنفرد بكل شيء ، وهى لاتتنازل عن ذلك أو عن بعض ذلك إلا إذا ارتقت فى معارج الكمال . بحيث ترى الدنيا بعين المؤمن أحقر من ذبابة ، وأتفه من بعوضة ، وحينئذ تنظر إليها فتراها جيفة لايلهث وراءها إلا الكلاب .

لماذا إذن الاستئثار بها ؟ إن الدنيا بأسرها لاتستحق أن يبغض المؤمن أخاه

---

(١) رواه مسلم .

(٢) سورة الشعراء الآية ٨٨ — ٨٩ .

من أجلها ، فكيف يكره أن يشاركه فى خيرها ؟

لهذا كان حب الخير للناس برهانا على صدق المحبة فى الله ، ودليلا على كمال الإيمان ، يقول رسول الله ـ ﷺ ـ « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحبه لنفسه »

إن هذه الروابط من أهم قواعد البناء فى المجتمع الإسلامى ، لأنها تشد أفراد المجتمع ، وهم لبنات البناء فيه بعضهم إلى بعض ، فيظهر المجتمع وهو أقوى مايكون تماسكا فى وجه أعدائه ، وأشد مايكون صلابة فى مواجهة المحن والشدائد ، فلا يوهنه عدو ، ولاتنال منه محنة ، بل يتغلب على كل ذلك بالأخوة القائمة بين أفراده ، وينصر بعضهم بعضا بالمحبة السائدة فيهم .



الفصل الرابع

الروابط الاجتماعية

يأتى دور الروابط الاجتماعية بعد الدور العظيم الذى قامت به الروابط الدينية فى التلاحم بين أفراد المجتمع الإسلامى ، والروابط الاجتماعية لاتقل أهمية فى صنع الالتحام عن الروابط الدينية ، لأن الروابط الاجتماعية لها عمقها فى النفوس ، وأثرها فى القلوب ، حيث تكون عرفا سائدا يجمع الناس على احترامه حتى تصبح فى منزلة الروابط الدينية .

ونعنى هنا بالروابط الاجتماعية الجانب الأخلاقى الذى يعتبر الميزان الحقيقى لتمييز معادن الناس وتصنيفهم ، وإظهار أصلهم الذى ينتمون إليه ، فكلما كان الرجل ذا خلق فاضل كان ذا معدن نفيس وأصل طيْب نظيف ، وبالعكس من ذلك يكون ذا معدن ردىء من كان ذا خلق سيء ، فمهما قومته يعود إلى معدنه ، ومهما أحسنت إليه يخن إلى أصله ، وفى هذا يقول الشاعر :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

إن نفاسة المعدن ، وطيب الأصل يبرزان فى الناس عند الشدة ، ويظهران على حقيقتهما فى أوقات الحرج والضيق ، وعندئذ يتميز الرجال ، وحينئذ تعرف عدوك من صديقك ، فصديقك هو الذى يقف إلى جوارك فى محنتك ولا يتخلى عنك وأنت فى حاجة إلى عونه وإن جافاك فى حال رخائك وبحبوحتك وعدوك الحق هو الذى يعرفك وأنت تملك الدور والقصوْر ، وترفل فى الدمقس وفى الحرير ، فإذا نقص مالك نقص وده لك بقدر نقصه ، وإذا تجهمت لك الدنيا أعطاك قفاه ، وكأنه لايعرفك ولاتعرفه ، فإذا بحثت عن السبب لاتجد ورْاء ذلك إلا معدن الرجل وأصله .

وقد ورد فى هذا المعنى القيم قول الرسول ــ ﷺ ــ : « الناس معادن كمعادن الفضة والذهب ، خيارهم في الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا ، والأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلفت »(١)

وكما أن المعادن تختلف في نوعها وجودتها وقيمتها ، فكذلك الناس يختلفون في نوعياتهم وأصولهم وقيمهم والمحك الحقيقى الذى نفرز به نوعية الرجال ، ونعرف به طيب عنصرهم هو الشدائد ، وصدق الشاعر حين قال :

جزى الله الشدائد كل خير   عرفت بها عدوى من صديقى

ذلك لأن الإنسان في وقت المحنة يحتاج إلى العون ، وينتظر من يساعده ليخرج منْ ورطته ، ولن يقف معه فى هذا الوقت العصيب إلا إنسان كريم الأصل ، طيب العنصر ذو مروءة وخلق ، وتلك فى مجموعها هى الأخلاق الفاضلة وهذا النوع من الناس لا يهدأ له بال وصديقه في محنة ، ولا يطيبْ له عيش وصاحبه فى ضيق ، ولا يطمئن له قلب ورفيقه في ورطة ، بل يظل يبذل جهده ، وينفق ماله ، ويضحى بكل غال ونفيس لينقذ صاحبه مما ألمَّ به من الضيق ، ويزيل عنه مانزل به من البلاء ، وفى هذا يقول الشاعر :

إن صديق الحق من كان معك   ومــن يضر نفسه لينفــعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك   شتت شملـــــه ليجمعك

هذا هو الإنسان الذى ينشده الإسلام ، وهو الذى يستحق أن يوصف بأنه عضو بناء في المجتمع الذى يعيش فيه ، ولأجل هذا وضع الإسلام الخطط لبناء لمجتمع على هذا الجانب الهام فى الإنسان .

الإسلام يرى أن الروابط الاجتماعية ضرورية لتماسك المجتمع ، والتحام أفراده ولهذا فإنه يحث على الاتصاف بالجانب الأخلاقى الذى هو التعبير الصادق عن هذه الروابط ، فالإنسان فى الإسلام يكون دائما تحت رقابة دقيقة فهو يستشعر مراقبة الله ــ عز وجل ــ له فى كل أحواله ، ويعلم أنه ــ

---

(١)رواه مسلم .

سبحانه ـــ لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

وحث الإسلام على التحلى بالأخلاق الفاضلة لايقف عند هذا الحد بل يتجاوز ذلك إلى المثوبة العظيمة ، والأجر الكبير للذين يتحلون بالأخلاق الفاضلة ، حتى يكون ذو الخلق الكريم مأجورا على حسن خلقه كما يؤجر الصائم القائم وإن لم يصم أو يقم ، فخلقه الحسن يضمن له ذلك الثواب العظيم ، يقول الرسول ـــ ﷺ ـــ: ـــ « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم » (١)

إن المسلم إذا علم أن للصائمين أجرا عظيما ، وأن للقائمين ثوابا كبيرا ، فإنه تدفعه رغبته فى الحصول على ذلك الأجر وتلك المثوبة إلى كثرة الصيام والقيام حتى يقترب إلى الله ـــ عز وجل ـــ بصيامه وقيامه ، وحتى ينال ذلك الأجر الذى وعد الله به الصائمين والقائمين .

وإذا كان حسن الخلق يضمن للإنسان مثل ذلك الأجر فإنه ولا شك يلتزم حسن الخلق ، ويأخذ به نفسه مهما شق عليه ذلك ، فإنه من يخطب الحسناء لم يغلها المهر .

والإسلام ينظر إلى من حسن خلقه على أنه من أكمل المؤمنين إيمانا لأن الخلق الحسن يدفع صاحبه إلى الخير ، ويعصمه من الشر ، فهو يسهم فى بناء المجتمع ، ويدعم بناءه ، ويأخذ بيد أفراده إلى المعالى ، ويجنبهم الشرور والمآثم ، ولهذا يقول ـــ ﷺ ـــ : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا » (٢)

والإسلام فوق ذلك يجعل ذوى الأخلاق الفاضلة أحب الناس إلى رسول الله ، وأقربهم منه مجلسا يوم القيامة .

عن جابر بن عبد الله ـــ رضى الله عنهما ـــ أن رسول الله ﷺ ـــ قال :

---

(١) رواه أبو داود .

(٢) رواه الترمذى .

« إن من أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى يوم القيامة ، الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون

قالوا : يارسول الله ، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون

قال ـــ ﷺ ـــ : (المتكبرون) [(١)]

ولما كانت معادن الناس تختلف كما قدمنا كان بعضهم يغريه الأجر وبعضهم تردعه العقوبة ، لهذا وضع الإسلام الروادع إلى جانب المغريات وجعل المغريات لمن حسنت أخلاقهم ، والروادع لمن ساءت أخلاقهم ، وذلك لأن سوء الأخلاق يؤدى إلى ضعف المجتمع ، وزعزعة أركانه حتى إنه ليكون السبب المباشر لزوال الدول والقضاء على سلطانها ، يقول الشاعر :

وإنما الأمم الأخلاق مابقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

يقول الرسول ـــ ﷺ ـــ : « وإن أبغضكم إلىّ ، وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون » وهذه الصفات الثلاث من الأخلاق الذميمة التى يحذر منها الإسلام .

فالثرثارون هم الذين يكثرون الكلام متكلفين إظهار تفوقهم على غيرهم ، ومن كثر كلامه كثر خطؤه ، ومن الأخطاء الفاحشة التى يقع فيها الثرثارون الكلام فيما لايعنيهم ، والتدخل فى شئون غيرهم ، والخوض فى أعراض الناس وإظهار عيوب الآخرين ، ولو أنهم كفوا ألسنتهم ، والتزموا الصمت فى كل أحوالهم ، واستمسكوا بهدى نبيهم حيث يقول : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت » [(٢)] لكان خيرا لهم .

إن الثرثارين لابد لهم من الكلام ، فاذا لم يجدوا الحق تكلموا بالباطل وإذا لم يجدوا الصدق تكلموا بالكذب وبذلك يتورطون فى أمور كانوا فى غنى عن الوقوع فيها وإنما

---

(١) رواه الترمذى .

(٢) رواه أحمد فى المسند .

ألجأهم إلى ذلك كثرة كلامهم ، وحبهم للظهور والتفوق على غيرهم ، وتلك ولاشك خصلة ذميمة مقيتة تفسد العلاقات ، وتجرح الأبرياء ، وتوقع بين الناس العداوة والبغضاء .

والمتشدقون هم الذين يتطاولون على الناس بالكلام ، ويملأون أفواههم بالكلمات يريدون إظهار فصاحتهم ، وقوة تأثيرهم فى غيرهم وهؤلاء المتفاصحون مرضى بداء الغرور ، وهذا الداء العضال يجعلهم يحتقرون من دونهم ، ويسفهون آراء غيرهم ، وهؤلاء المتشدقون الذين يملأون أشداقهم بالكلام يهتمون بالألفاظ أكثر من اهتمامهم بالمعانى ، ويعتنون بالقشور ويهملون اللب ، فهم بذلك معرضون للدخول تحت قوله ـــ ﷺ ـــ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة لايرى بها بأسا يهوى بها فى النار سبعين خريفا » (١)

ومن أمثلة هؤلاء المتشدقين أولئك الذين يتكلفون السجع ويولعون به مما قد يؤدى إلى نتائج لم يقصدوها ، ولكن السجعة تحكم عليهم .

فقد روى مؤرخو الأدب أن أحد الأمراء كان مولعا بالسجع لا يتكلم إلا به ، وكان له قاض اسمه نُقَم جلس معه يوما وأخذ الحديث فنادى الأمير القاضى قائلا : أيها القاضى نقم ، وأغلق عليه فلم يجد ما يكمل به السجعة إلا قوله : قد عزلناك فقم .

وهكذا قضت السجعة على رجل برىء بالعزل دون ذنب ولا جريرة وحرمت الناس من كفاءة كان يمكن أن تسد مسدا قد لا يستطيع غيره القيام به ، وماكان ذلك ليحصل لولا التشدق بالكلام والعناية بالألفاظ دون المعانى ، ومن المعلوم أن ذلك يترتب عليه خسارة كبيرة ، وتضيع بسببه حقوق الناس ، هذا فوق ما يصاب به صاحب التشدق من الكبر والعجب بنفسه واحتقار الآخرين .

وأما المتفيهقون فهم الذين يختارون الغريب من الكلام يريدون بذلك إظهار فضلهم

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه .

على غيرهم تكبرا وترفعا على الناس ، فالمتفيهقون هم المتكبرون كما أخبر الرسول — ﷺ — حين سأله أصحابه — رضى الله عنهم — قالوا : يارسول الله ، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون ؟

قال — ﷺ — : « المتكبرون » .

والكبر خلق ذميم سيء ، وصاحبه بغيض عند الله وعند رسوله وعند المسلمين بل وعند الناس أجمعين ، وجزاء المتكبرين رادع ومخيف فالجنة عليهم حرام ، ويحشرون يوم القيامة فى أحقرصورة يطؤهم الناس بأقدامهم لهوانهم ، ولا يبالون بهم بالة ، جزاء وفاقا بما قدموا فى الدنيا من الغطرسة واحتقار الضعفاء

قال رسول الله — ﷺ — : « لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر »[١]هذا الذى فى قلبه مثقال ذرة من الكبر فكيف بمن ملىء كبراً حتى إن الناس ليرونه فى ثيابه ، ويسمعونه فى كلامه ، ويلمسونه فى مشيته .

هؤلاء هم الذين قال فيهم — ﷺ — : « يحشر المتكبرون يوم القيامة كأمثال الذر فى صور الرجال ، يغشاهم الذل من كل مكان ، يساقون إلى سجن فى جهنم يقال له (بولس) تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار(طينة الخبال)[٢]

لقد أراد الله — عز وجل — للمتكبرين أن يعاملوا بمثل ماكانوا يعاملون به الناس فى الدنيا ، إنهم كانوا ينظرون إلى الناس وكأنهم حشرات فحشرهم الله كأمثال الذر ولكنهم فى صورة الرجال زيادة فى إهانتهم ، وليعلم الذين يطئونهم أنما يطئون بشراً ولا يطئون ذراً ، جزاءً وفاقاً ، كما أخبر الله ولم يكن هذا الجزاء البشع إلا لعظم ماارتكبوا من الجرم ، واتصفوا به من سوء الخلق .

وهذه الصفات الثلاث : الثرثرة والتشدق والفيهقة ، لايتصف بها الناس ، ولا تسود فى مجتمع إلا تفرقت كلمتهم ، وتشتت وحدتهم ، وعاش فيه الناس أعداء

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه النسائى والترمذى .

متباغضين ، يكيد بعضهم لبعض ، ويحتقر بعضهم بعضا ، ويحقد بعضهم على بعض ، ولاخير فى مجتمع مفكك الأوصال ، ممزق الشمل ، يعيش كل فرد فيه لنفسه فقط .

إن الإسلام دين الوحدة والقوة ، يقيم مجتمعه على روابط اجتماعية ويرسى قواعده على وحدة الصف وتماسك المؤمنين ، وهذه الروابط الاجتماعية نوعان : أحدهما قواعد يلتزم بها المسلم ، والثانى آفات يعالجها الإسلام لتحل محلها قواعد البناء وسأتكلم على كل منهما فيما يلى .

احترام الكبار ورحمة الصغار :

احترام الصغار للكبار ، ورحمة الكبار للصغار دعامة قوية من دعائم البناء والتعمير فى المجتمع الإسلامى ، لأن هذا العمل يوطد العلاقات بين أفراد المجتمع ، ويديم بينهم المودة ويقوى أواصر المحبة ، فيكون المجتمع متماسكا قوياً ، يواجه الشدائد متحد الكلمة ، قوى العزيمة ، ويشعر كل منهم بشعور الآخرين ، فيفرح لفرحهم ويأسى لحزنهم

فاحترام الكبار خلق كريم ، وكان الرسول — ﷺ — يعلم أصحابه ذلك الخلق بالقول تارة ، والعمل تارة أخرى حتى يرسخ ذلك فى عقولهم ، يستقر فى قلوبهم ، ويصبح سجية لهم ، ولذلك لم تكن هناك فرصة يمكن فيها تذكير المؤمنين بهذا الخلق إلا انتهزها الرسول .

جاءه رجال يكلمونه فى قتيل لهم ، فبدأ أصغرهم يتكلم ، فلم يدعه — ﷺ — يتكلم وفى القوم من هو أكبر منه سنا ، بل قال : (كبِّر كبِّر)[1] فتكلم من هو أكبر منه سنا وسكت الصغير .

وفى الصلاة كان يقدم الرجال فى صفوف مستقلة ، ثم يصف الصبيان خلفهم فى صفوف مستقلة ، وينهى أن يختلط الصغار بصفوف الكبار ، لأن ذلك يؤدى إلى

---

(١) متفق عليه .

أن يتأخر الرجال ويتقدم الصبيان ، فيتعودوا ذلك ، فتضيع هيبة الكبار من نفوسهم فلا يحترمونهم ، وذلك ما حصل الآن لما سمحنا للصغار أن يتقدموا على الكبار ويخالطونهم من غير مراعاة للآداب .

فنحن الآن نعانى من هذا البلاء ، ومجتمعنا يشكو من سوء أخلاق الصغار ، وتقدمهم دون مبالاة على من هم أكبر منهم ، فنحن نراهم يزاحمون الكبار فى مجالسهم وأسواقهم واجتماعاتهم ، وحتى فى المساجد ، وتحذيرا من الوصول إلى هذا الوضع المتردى ، يقول الرسول الكريم ــ ﷺ ــ : « ليلنى منكم أولو الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ، وإياكم وهيشات الأسواق » (١)

وهيشات الأسواق هى الاختلاط بين الناس بحيث لايتميز الرجال من النساء ولا الصغار من الكبار ، وإذا صح هذا فى الأسواق فإنه لايصح مطلقا فى المساجد التى هى بيوت الله ــ عز وجل ــ والتى هى المدارس التى يتعلم فيهاالمسلمون مكارم الأخلاق وأقدار الناس وإذا حدث هذا فى أسواق غير المسلمين فإنه لايجوز فى أسواقهم لأن للمسلمين أخلاقهم وآدابهم التى تحول بينهم وبين الاختلاط على هذا النحو .

وكما كان ــ ﷺ ــ يُعلِّم احترام الكبار عمليا كما رأينا ، كان يحث على ذلك بالقول ، فقد روى الترمذى عن أنس رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا » (٢) وكان يقول : « إن من إجلال الله ــ تعالى ــ إكرام ذى الشيبة المسلم » (٢)

وجلس يوما مع أصحابه ، وأخذ يقص عليهم رؤيا يعلمهم بها أن احترام الكبير ، وتقديمه على الصغير أمر لابد منه ، وأنه خلق من أخلاق الإسلام ، بل إنه ــ ﷺ ــ مأمور بذلك من قبل الله ــ تبارك وتعالى ــ روى ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ أن النبى ﷺ ــ قال : « أرانى فى المنام أتسوك بسواك

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواهما أبو داود .

فجاءنى رجلان أحدهما أكبر من الآخر فناولت السواك للأصغر ، فقيل لى : كبِّر فدفعته للأكبر منهما »[1]

هكذا يعلمنا الرسول ويدعونا إلى احترام الكبار فأين نحن من ذلك ؟ إن الصغار يزاحمون الكبار فى مجالسهم ، ويرفعون أصواتهم فى حضرتهم ويغلبونهم حتى يأخذوا الحديث منهم ، وغرر بنا أعداء الإسلام فأفهمونا أن هذا أسلوب من أساليب التربية الحديثة التى تنمى شخصية الصبى ، وتمنحه القدرة على حل المشكلات ومواجهة الصعوبات والغريب أننا اقتنعنا بكلامهم وعملنا به فى تربية أبنائنا .

نعم ، إن الإسلام لا يمنع أن يجلس الصغار فى مجالس الكبار ليتعلموا منهم ، ويستفيدوا من الحوار الذى يدور فى مجالسهم ، ويكتسبوا من خبراتهم ، ولكن بشرط ألا يتقدموا عليهم فى المجلس ، ولا يسبقوهم فى الكلام ، ولا يرفعوا أصواتهم فى حضرتهم إلا لضرورة ، فهل نحن نراعى ذلك الآن ؟ .

لقد أصبحنا ـــ بفضل التربية الحديثة ـــ نعتقد أن كف الصغار عن العبث فى مجالس الكبار حجر على حرياتهم ، وأن توجيههم إلى الآداب العامة إلغاء لشخصياتهم ، وأن نصحهم وتقويمهم تدخل فى تقرير مصيرهم ، وتركنا لهم الحبل على الغارب بحجة تنمية مواهبهم وقدراتهم فجنينا تلك الثمرة المرة ، وأصبح الآباء والمربون عاجزين عن الوصول إلى حل لتلك المشكلة ولم نعد نملك حيالها إلا أن نكون محوقلين .

ويدخل فى احترام الكبار احترام أهل الفضل ولو كانوا صغاراً ، وكذلك العلماء العاملون ، والأتقياء والصالحون ، لأن احترام هؤلاء واجب يفرضه الإسلام ، فقد فرق القرآن الكريم بين العلماء وغيرهم ، وجعل للعلماء مكانة رفيعة فيقول سبحانه : ـــ ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين

---

(١) رواه مسلم .

لايعلمون ﴾[1]ويقول ــ جل جلاله ــ : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾[2]

وحفظة القرآن الكريم العاملون بما فيه ، فيحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ويتأدبوا بآدابه ، هؤلاء هم خاصة الله وأهله ، وهم أحق بالاحترام وأجدر بالتوقير من غيرهم ، وفيهم يقول الرسول ــ ﷺ ــ : « إن من إجلال الله ــ تعالى ــ إكرام ذى الشيبه المسلم ، وحامل القرآن غير الغالى فيه ، والجافى عنه »[3]

وكان ــ ﷺ ــ وهو يدفن شهداء أحد ، يجمع بين الرجلين فى القبر الواحد ، وكان يسأل ، (أيهما أكثر أخذا للقرآن ؟) فإذا أشير له إلى أحدهما قدمه فى اللحد .[4]

هذا هو موقف الإسلام من عباد الله الصالحين ، فما موقفنا منهم اليوم ؟

إن الناس اليوم إذا أرادوا أن يسخروا لايجدون مادة للسخرية إلا فى العلماء وحمله القرآن ، فالنكت السيئة تنسب كلها إلى الفقهاء ، والتمثيليات مادتها فى الهزؤ والسخرية حملة القرآن ، والمسرحيات والمسلسلات لاتكون مسلية إلا إذا ظهر فيها رجل صالح فى صورة مخبول قذر الثياب لاهم له إلا الطعام والشراب .

والأفلام لايقبل عليها الناس إلا إذا كانت مثيرة ومادة الإثارة فيها رجل ينتحل الصلاح ، ويمسك مسبحة ويقوم بدور اللص المهرب مستترا وراء الصلاح والتقوى وهكذا .

إن هذه الحملة المسعورة على الفقهاء والعلماء والحفاظ والقراء إنما هى من

---

(١) سورةالزمر الآية ٩ .

(٢) سورة المجادلة الآية ١١

(٣) رواه أبو داود .

(٤) رواه البخارى .

تدبير أعداء الإسلام ليسقطوا هيبتهم من النفوس ويزعزعوا مكانتهم فى القلوب ويقطعوا الصلة بينهم وبين أفراد المجتمع فلا يثقون فيهم ، ولايستمعون لهم ، ولايرجعون إليهم فى رأى ولافتوى ، فتنبت العلاقات بينهم ، ويفقد المجتمع الرأى الصائب ، والتوجيه السديد ، ولا يجد القيادة الرشيدة التى يرجع إليها عند الشدائد ، ويلجأ إليها فى الأزمات ، وحينئذ يسلس قياده فى أيدى أعدائه ويصبح وهو دارج فى فلكهم ، يدور معهم حيث يدورون ، ولا يستصوب إلا مايستصوبون ، ولايقبح إلا مايقبحون ، وبهذا يفقد المسلم شخصيته ، فيغدوا وهولا يجد وطنا ينتسب إليه ، ولا تراثا يعتز به ، ولا أصلاً ينتمى إليه .

إن احترامنا للعلماء ، وتقديرنا لأهل الصلاح ، ومعرفتنا لحق الكبار كل ذلك من القواعد المتينة التى وضعها الإسلام لتوطيد العلاقات بين أفراد المجتمع ، والإخلال بها يؤدى إلى عكس المطلوب تماما .

وإنما وضع الإسلام هذه القواعد لأنه يبنى أمة ، ويؤسس دولة وينشىء مجتمعا على الفضائل والمكرمات .

٢ ـ إنزال الناس منازلهم :

إن إنزال الناس منازلهم المناسبة لهم ، ومعرفة أقدارهم بشكل يحقق الغاية من تصنيفهم ، وإحلال كل فرد منهم فى مكانه الذى يمكنه الإنتاج فيه ، من العوامل ذات الأثر المحمود فى بناء المجتمع فوضع الشيء فى موضعه هو عين الحكمة ، لهذا فلا يجوز أن نضع السفلة من الناس فى موضع الرئاسة ، لأنه لاخلق لهم يرجعون إليه ولا أصل يحافظون عليه وأغلب مايكون هؤلاء مملوئين بالحقد على غيرهم ممن هم أعلى منهم منزلة ، وأشرف منهم نسبا وأصلا ، وكثيرا مايغلى الحقد فى صدورهم فينفسون عنه بالانتقام فتنقطع أواصر المحبة بين الناس وتسوء بينهم العلاقات ، ويترتب على ذلك ضعف المجتمع وانهيار بنيانه .

كذلك لايجوز إحلال الجهلة محل المفكرين المبدعين ، لأن ذلك يلقى

بمقاليد الأمة فى أيد لاتستطيع المحافظة عليها ، ولاتقدر مصلحتها حق قدرها ، فيتها ونون فى حقوقها ، ويفرطون فيما يجب عليهم نحوها دون أن يدركوا المصير المظلم الذى ينتظرها ، ولهذا قال الشاعر :

ووضع النـدى فى موضع السيـف بالعـــلا مضر كوضع السيف في موضْع النـدى

وقال الحكماء : عدو عاقل خير من صديق جاهل .

وممن يستحقون الإكرام أناس كانت لهم منزلة فى أقوامهم ، ورئاسة فى بلادهم ، فجار عليهم الزمان ، ودارت بهم الحدثان ، والمسلمون لا يشمتون بأمثال هؤلاء ، ولا يعطونهم ظهورهم ، وينصرفون عنهم وهم فى محنتهم ، بل يقفون معهم ، ويعاونونهم على الخروج من ورطتهم ، وفى هؤلاء يقول الرسول ــ ﷺ ــ « أنزلوا الناس منازلهم »[1] أى راعوا فى معاملتهم ماكانوا عليه قبل جور الزمان عليهم ، لأن ذلك يرفع معنوياتهم ، ويساعدهم على النهوض من عثراتهم ، ويمكنهم من استرداد مكانتهم التى فقدوها من غير قصد منهم .

وإلى هذا المعنى الشريف يشير الحديث الشريف « أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم إلا الحدود »[2]

وكانت السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ تعامل الناس على هذا الأساس الذى ذكره الحديث الشريف ، فقد مر بها سائل فأعطته كسرة ، ومر بها رجل عليه ثياب وهيئة ، فأقعدته فأكل ، فقيل لها فى ذلك .

فقالت : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « أنزلوا الناس منازلهم »

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه أحمد فى المسند .

إن إقالة ذوى العثرات من ذوى الهيئات ، وإنزال النـاس من ذوى المـروءة المنزلة المناسبة لهم كل ذلك يدعم بناء المجتمع بالأشخاص القادرين على النهوض به ، المتمرسين على الإدارة وأساليبها ، وبهؤلاء تنهض الأمة بأعبائها معتمدة على سواعد أبنائها .

والتكافل فى المجتمع الإسلامى من أقوى دعائم البناء فيه ، فالإسلام يفرض على المسلمين أن يتكافلوا فيما بينهم يعين قويهم ضعيفهم ، ويعطى غنيهم فقيرهم فالرسول ـ ﷺ ـ يقسم ويؤكدالقسم أن المؤمن تسلب منه صفة الإيمان إذا بات شبعان وجاره جائع ، لقد كان الواحب عليه قبل أن يملأ بطنه أن يسأل عن جاره فإذا علم أنه ليس عنده ما يأكله فعليه أن يقسم ما عنده بينه وبين جاره ، ولأن يبيت كل منهما بنصف بطنه خير من أن يذهب أحدهما بتخمة الطعام ، ويبيت الآخر طاويا يؤرقه الجوع فلا يجد للنوم طعما .

ومن أجل هذا جعل الله ـ تعالى ـ للفقراء حقا معلوما ثابتا فى مال الأغنياء ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ والذين فى أموالهم حقٌ معلوم للسائل والمحروم ﴾ (١)

هذا التكافل الذى فرضه الإسلام على أبنائه يشد به أزر المحتاجين ، ويدعم الروابط بين الأغنياء والفقراء ، ويعيد لذوى الهيئات مكانتهم فى المجتمع ، فلا تكون هناك أحقاد وطبقية ، ولاتنشب بسببها حروب أهلية ، بل يعيش الناس جميعا فى ظل هذا النظام إخوة متحابين يشعر الغنى بحاجة الفقير فيواسيه ، ويعطيه ، ويشكر الفقير للغنى هذا النبل الأخلاقى فيدافع عنه ويحميه .

وبتحقيق التكافل بين أفراد المجتمع الإسلامى نحطم أعدى أعدائنا المتربصين بنا وهى الشيوعية الحاقدة التى لاتعيش إلا فى المستنقعات العفنة ، ولا تنمو وتترعرع إلا فى ظل الفقر والطبقية .

---

(١) سورة المعارج الاية ٢٤ ـ ٢٥ .

٣ ــ حقوق الجوار :

للجوار فى الإسلام حقوق كثيرة ، ومنزلة عظيمة وقد حث الله ــ سبحانه ــ على الإحسان إلى الجار فى قوله ــ جل شأنه ــ ﴿ واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وماملكت أيمانكم ، إن الله لايحب من كان مختالا فخورا ﴾ (١)

الآية الكريمة كما نرى أوصت بالجار ، وجعلت الوصية به بين أمور كلها جلائل عظام ، فقد سبقها الأمر بعبادة الله وحده والنهى عن الشرك ، وهذان هما أعظم مايجب على العبد فى هذه الحياة ، وبدونهما لايقبل منه عمل مهما كان صالحا ، ولاتستقيم أموره ، ويوم القيامة يكون من الخاسرين ، ويكون عمله هباء منثورا مهما قدم من الخيرات وأعمال البر ، ويقول الله ــ تبارك وتعالى : ــ ﴿ وقدمنا إلى ماعملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثورا ﴾ (٢)

وسبق الوصية بالجار كذلك الأمر بالإحسان إلى الوالدين ، ومن المعلوم أن الإسلام قد جعل حقهما بعد إخلاص العبادة لله ــ عز وجل ــ ولذلك قرن بين التوحيد الخالص وبين الإحسان إلى الوالدين فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، فمن ذلك قوله ــ تعالى ــ فى الآية السابقة : ﴿ واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ﴾ (٣) وقوله جل شأنه ــ : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ﴾ (٤)

﴿ قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ﴾ (٥)

---

(١) سورة النساء الآية ٣٦ .

(٢) سورة الفرقان الآية ٢٣ .

(٣) النساء آية ٣٦ .

(٤) سورة الاسراء الآية ٢٣ .

(٥) سورة الانعام الآية ١٥١ .

﴿ أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾ [1]

وهذا القرن بين الأمرين يدل على عظم حق الوالدين وجليل شأنه ، فإن حق الله على عباده هو أعظم الحقوق على الإطلاق فإذا كان الذى يليه في المنزلة هو حق الوالدين كان ذلك تعظيماً لشأنهما وإكباراً لمقامهما وبعد أن أمر الله ـــ جل شأنه ـــ بهذين الأمرين الجليلين ثلث بحقوق ذوى القربى ، وهم أقارب الإنسان ذكوراً كانوا أو إناثاً وفى ذلك إشارة إلى أن الإنسان ينبغى أن يبدأ بأقاربه ، فلا يتركهم عالة يتكففون ويمد يده بالإحسان إلى غيرهم .

وعطف عليهم اليتامى والمساكين وإن لم يكونوا من ذوى القربى ليعلمنا كيف يمتد عملنا الصالح إلى كل الجهات ليكون عاما يستفيد منه المجتمع ، ويرتبط الغنى بالفقير ، وتنشأ العلاقات الحسنة بين الناس أجمعين ثم خص الجار بالذكر ـــ وقد يكون قريبا ، وقد يكون من المساكين ، وقد يكون غيرذلك قال ـــ تعالى ـــ : ﴿ والجار ذى القربى والجار الجنب ﴾ فالجار ذو القربى هو الجار الذى يكون بينه وبين جاره صلة قرابة ، وأما الجار الجنب فهو الذى ليس بينه وبين جاره هذه الصلة ، ولكن الجوار قد ربط بينهما فهو قد اكتسب هذا الحق بوجوده إلى جانب جاره .

للجوار فى الإسلام حقوق تختلف باختلاف نوع الجوار ، فهناك جار له حق واحد، وهناك جار له حقان ، وجار ثالث له ثلاثة حقوق ، فإذا كان الجار مسلما ذا قرابة فهو صاحب الحقوق الثلاثة : حق الإسلام وحق القرابة وحق الجوار ، وإذا كان مسلما وليست له قرابه فله حقان : حق الإسلام وحق الجوار ، وإذا كان غير مسلم فله حق واحد وهو حق الجوار .

ومن هنا نعلم أن وصية الإسلام بالجار لاتختص بالمسلمين ، ولكنها تعم كل جار مسلما كان أم غير مسلم ، قريبا كان أم غير قريب ، وذلك لأن للجوار منزلة

---

(١) سورة لقمان الآية ١٤ .

لايتهاون فيها إلا ضعيف الإيمان ، فالجار له حقوق الجوار مهما خالف فى الدين ، ومهما انبتت الصلة بينك وبينه وقد آكد الرسول — ﷺ — هذه الحقوق للجار مطلقا بقوله : « لازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » [(١)]

وهكذا يأتى لفظ الجار بغير قيد ليشمل كل جار كما سبق ، وبهذا يحصل التلاحم بين أفراد المجتمع ، وتقوى الروابط بينهم حتى يقوم البناء قوياً قادراً على مواجهة التحديات .

وإنما اختلفت حقوق الجيران باختلاف نوعية الجار لأن ذلك هو الوضع الفطرى الذى يمليه الواقع ، وتقره الفطرة السوية ، والإسلام دين الفطرة ، وقد بين الرسول — ﷺ — هذه الحقوق لكل جار حتى لا تطغى العاطفة الدينية على حق الجار غير المسلم فقال : « الجيران ثلاثة جار له حق واحد ، وهو أدنى الجيران حقا ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق وهو أفضل الجيران حقا .

فأما الجار الذى له حق واحد فجار مشرك لا رحم له ، له حق الجوار ، وأما الجار الذى له حقان فجار مسلم ، له حق الجوار وحق الإسلام ، وأما الذى له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم ، له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم » [(٢)]

ولقد ذكرت الآية الكريمة بعد الوصية بالجار الوصية بالزوجة « والصاحب بالجنب » وعطفت ابن السبيل وما ملكت أيدى الناس من العبيد والإماء ، وثلاثتهم فى حاجة إلى الوصية بهم لضعفهم وتشابههم فى الحال من حيث كثرة وقوع الظلم عليهم لعدم قدرتهم على الدفاع عن أنفسهم .

فكثير من الناس يرون أن الزوجة ليس لها حق فى مراجعة زوجها فى شىء بل عليها أن تستسلم ، وهو دائما يغلبها على أمرها ، ويسفه رأيها ويعتقد أن ذلك هو حقه عليها ، ولذلك أوصى الله بها خيرا فقال : ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ [(٣)] وشبهها

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه البزار .

(٣) سورة النساء الآية ١٩ .

الرسول بالأسرى الأمر الذى يوحى بالعطف عليها والرفق بها ، قال ـــ ﷺ : ـــ « اتقوا الله فى النساء إنما أخذتموهن بأمانة الله »[1] وقال « استوصوا بالنساء خيرا فإنما هن عوان عندكم »[2]

وأما ابن السبيل فهو الغريب المنقطع الذى يمر على الناس فى بلادهم ولاشك أن الغربة من أهم عوامل الضعف المؤدية إلى إثارة العطف ، فهو فى حاجة إلى من يواسيه ، ويقدم له العون ليتعزى به عن أهله وولده الذين خلفهم وراءه .

وأماالأرقاء من عبيد وإماء وهم الذين عبرت عنهم الآية الكريمة « بما ملكت أيمانكم » وهم الأسرى الذين يقعون فى أيدى المسلمين بسبب الحرب بينهم وبين الكفار ، والأسرى كما يعلم الجميع لايملكون من أمر أنفسهم شيئا ، ولا يستطيع الواحد منهم أن يتصرف فى أبسط الأمور ، لأنهم ليست لهم إرادة إلا فيما يخولهم فيه سادتهم ، فهم كالسلعة فى أيدى التجار ، وهؤلاء لابد من التذكير بأحوالهم ، والوصية بهم حتى لايطغى كبرُ سادتهم على حقوقهم ولئلا يكونوا سببا فى فخر سادتهم على الناس بملكيتهم ، ولهذا عقب ـــ سبحانه وتعالى ـــ بعد الوصية بمن ذكروا فى الآية الكريمة بقوله ـــ جل جلاله ـــ : ﴿ إن الله لايحب من كان مختالا فخورا ﴾

وهكذا تكون الوصية بالجار قد وضعت بين هذه الوصايا الخالدة يسبقها ويلحقها الوصية بأمور عظام دلالة على أهميتها فى الإسلام وعناية القرآن المجيد بها لئلا يفرط فيها المسلمون .

ومن حق الجار على جاره أن يتفقده ، فيسأل عنه إذا غاب فإن كان مريضا عاده ، وإن كان غائبا خلفه فى أهله بخير ، وإن كان فى حاجة إلى العون قدمه له .

ومن حقه كذلك تقديم النصيحة فى أى أمر يهمه ، والنصيحة واجبة على المسلم

---

(١) إمتاع الإسماع ص ٥٢٣ رواه مسلم .

(٢) رواه الترمذى .

لكل إنسان فكيف بالجار الذى له من الحقوق ماليس لغيره ، ومن حقه كذلك أن يسدده بالمعروف والنهى عن النكر ، ولاينبغى أن يسكت الجار عن جاره حين يراه مخالفا إبقاء على صحبته ، لأنه حينئذ يكون مضيعا لحق جاره الذى أوجبه الشرع عليه .

إننا حين ننظر إلى المجتمع فنرى فيه هذا التعاطف والترابط بين كل أفراده الغنى والفقير والقوى والضعيف والرئيس والمرءوس والحر والعبد والذكر والأنثى والصغير والكبير لابد أن ندرك على الفور قوة هذا المجتمع وصلابته وقدرته على مواجهة الشدائد ، والصمود أمام التحديات .

إن المجتمع الإسلامى يقوم على هذه القاعدة القوية ، وينشأ أفراده على هذه الأسس المتينة التى يدعمها القرآن المجيد وتؤكدهاالسنة النبوية المطهرة ، ولهذا كان أقوى المجتمعات التى عرفها التاريخ منذ أن ظهر فى الوجود ، وحتى تهاون أتباعه فى التمسك بها .

وهناك آفات تصاب بها المجتمعات فتضعف قوتها ، وتوهن عزيمتها ،وتودى بها ، والإسلام لم يقف موقفا سلبيا من هذه الآفات بل عرف المسلمين بها ليتجنبوها ، ووضع العلاج الناجع للقضاء عليها ، وهذه الآفات تتلخص فيما يأتى .

القضاء على الآفات الاجتماعية

١ ـــ الغيبة والنميمة والكذب :

المجتمعات كالأفراد تصح وتمرض ، وتقوى وتضعف ، ويصيبها من الآفات مثل ما يصاب به الفرد غير أن الآفات تختلف ولكنها على كل حال آفات تترك فى الجسم آثارها الضارة ، وقد تكون لها مضاعفات تودى بالحياة .

ومصيبة الأمم فى مجتمعاتها نتيجة حتمية لمصيبتها فى أفرادها إذ المجتمعات ليست إلا أفرادا اجتمعوا وتعايشوا فى ظل نظام اصطلحوا عليه وخضعوا له ، فالمصيبة فى الأفراد هى بدايه المصيبة فى المجتمعات ولهذا فإن المجتمعات الواعية تعمل دائما على

سلامة أفرادهـا فإذا ما أحست بضعـف فى اللبنـات أو خلـل فى المسيـرة بادرت بإزالة الضعف ونشطت لتصحيح المسيرة .

إن الانحراف فى الأفراد يمكن تقويمه بسهولة عندما يفطن له ، وعندما يصح عزم الأمة على التخلص منه ، أما بعد أن يستشرى ويصبح مرضا مستوطنا فإنه ينخر فى كيان المجتمع حتى يتركه أثرا بعد عين ، وهنا يفقد المجتمع كل مقومات الحضارة الإنسانية ، وكل إمكانيات التقدم والرقى ، ويبدو شبحا حقيقة له فى نظر كل من يبحث عن الحقيقة من العلماء والباحثين والمحققين .

لهذا كانت نظرة الإسلام إلى المجتمع نظرة واقعية تبدأ من الأفراد فتهتم بهم ، وتضع البرامج لتربيتهم وتقويمهم ، وتتحسس على الدوام أحوالهم وأخبارهم ، لأن هذه كلها اهتمامات ينظر إليها الإسلام من حيث كونها واجبات لايجوز التقصير فيها .

ومن خلال هذه الاهتمامات يمكن تشخيص حال المجتمع والحكم عليه ، والوقوف على مدى تقدمه وتطوره ، أو انحداره وتأخره .

ومن الآفات التى يصاب بها أفراد المجتمع ، وتبدو آثارها السيئة على المجتمع نفسه الغيبة والنميمة والكذب ، وهذا الثالوث هو أخطر الآفات وأشدها فتكا ، نعم ، هناك آفات أخرى تصدّع المجتمع ، وتدمر كيانه ، وتمكن أعداءه من النيل منه ، ولكنها تأتى فى الدرجة الثانية بعد هذا الثالوث المرعب .

الغيبة هى ذكرك أخاك بما يكره ولو كان حاضرا ، ولو كنت صادقا فيما تذكر به أخاك ، يقول رسول الله ﷺ ـــ : « الغيبة ذكرك أخاك بما يكره » .

قالوا : يارسول الله ، أفرأيت إن كان فى أخى ماأقول ؟

قال ـــ عليه الصلاة والسلام : ـــ « إن كان فيه ماتقول ، فقد اغتبته وإن لم

يكن فيه فقد بهته » [1]

فالغيبة معول هدم فتاك في حياة الأمم ، ولهذا فقد حذر منها الإسلام ونهى عنها نهيا لايحتمل التأويل ، وقد صورها القرآن الكريم فى أبشع صورة وأقبحها ، وذلك فى قوله ــ تعالى ــ : ﴿ ولايغتبْ بعضُكم بعضاً أيُحب أحدُكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾ [2]

فالقرآن الكريم يذكر المسلم بالرحم التى بينه وبين أخيه المسلم وهى الإسلام ، ويذكره كذلك بالأخوة التى تستدعى الدفاع عن الأخ ، وتوجب حمايته ، ولا تبيح ذمه والنيل منه ، فإذا لم يَرْعِو لحرمة الرحم ، ولم يرده حق الأخوة ، فهناك التصوير البشع الذى تتقزز منه النفوس ، ويتصدع لهوله القلب ، وهو تمثيل المغتاب بمن يأكل لحم أخيه نتنا قد جيف وتعفن ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟ فكرهتموه ﴾ .

والغيبة بهذه المثابة تقطع الأرحام ، وتفتت الروابط ، وتقضى على كل ما يمكن أن يصل الإنسان بأخيه الإنسان ، فأنت حين تذكر أخاك بما يكرهه تفتح بينك وبينه باباً واسعاً لايغلق من البغضاء والشحناء ، وهذا يؤدى إلى ضعف المجتمع ، وتوهين روابط المحبة بين أفراده .

والنميمة نقل الكلام بين الناس بقصد الإفساد ، وهى بذلك أبلغ ضررا فى المجتمع من الغيبة ، لأن الغيبة ذكرك المرء بما يكره فالضرر فيها لايعدو شخصاً واحداً ، أو شخصين ، وإنما النميمة فهى نقل الكلام من شخص إلى شخص أو من مجموعة من الناس إلى مجموعة أخرى يريد بذلك الإفساد والإيقاع بين الناس فضررها متعد إلى أشخاص كثيرين ، وقد تثور بسببها فتن تطيح فيها رءوس ، وتقتل فيها نفوس ، وتشتعل من أجلها حروب تأكل الأخضر واليابس ، وتقضى على مابين الناس من الروابط ، ومن أجل هذا حرمت الجنة على

---

(١) رواه مسلم .

(٢) سورة الحجرات الآية ١٢ .

النمامين ، قال ــ ﷺ ــ : « لايدخل الجنة نمام » (١)

ذلك لأن الجنة دار اجتماع وألفة ومنزل محبة ومودة ، فلا تكون المناسبة لحياة النمامين الذى يفرقون بين الأحبة ، ويقطعون أواصر المحبة ، فكما كانوا يفرقون بين الناس فى الدنيا بالنميمة ، فليفرق بينهم وبين المؤمنين فى الآخرة جزاء ما قدمت أيديهم ، كما كانوا يفسدون على الناس معيشتهم فى الدنيا ، فليعيشوا فى ضنك وضيق لايجدون وليا ولا نصيرا ، وذلك هو معنى قوله ــ تعالى ــ : ﴿ ويلٌ لكل همزةٍ لمزة ، الذى جَمعَ مالًا وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، كلا لَيُنبذن فى الحُطَمة ، ومـاأدراك ، ماالحطمـة ، نار الله الموقـدة ، التى تطلِعُ على الأفئدة ﴾ (٢)

إن الناس فى هذه الحياة الدنيا يحسبون أن المال الكثير سيحلهم عند الله محلا مرموقا كما يحلهم فى الدنيا عند الناس ، لهذا نوهت الآيات بذكر المال وصرحت بأنه لن يغنى عن صاحبه شيئا إذا كان من العصاة ، ثم أكدت بأن النمام مهما جمع من المال ، ومهما امتلك من كنوز الدنيا فإنه سينبذ فى الحطمة وهى نار الله التى تحطم أضلاعه وتفرق أوصاله ، وتمزق فؤاده ، وذلك لأنه مزق شمل الناس ، وفرق جمعهم ، فلا أقل من أن يعامل علـى النحـو الـذى عامـل به النـاس ، وبهذا التخويـف وبهذا الإنـذار المخيـف يهدد الله ــ عز وجـل ــ النمامين لعلهم يرعوون .

وأما الكذب فهو ضد الصدق ، وهو افتراء الكلام واختلاقه ، والكذب داء عضال إذا أصيب به إنسان أفسد عليه حياته كلها ، والكذاب منبوذ عند الناس ، لايسمع لما يقول ولو كان صدقا ، ولايصدق ما يرويه ولو كان حقا ، ذلك لأن الكذب يقود صاحبه إلى الفجور والخروج على حدود الشرع ، وهو من صفات الجبناء الذين لايستطيعون مواجهة الأمور بالشجاعة المطلوبة فيلجئون إلى

---

(١) متفق عليه .

(٢) سورة الهمزة .

الكذب تبريرا لمواقف الجبن التى وقعوا فيها ، ولهذا لما سئل رسول الله ـ ﷺ ـ أيكون المؤمن جبانا ؟ قال : نعم .

أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال : نعم .

أيكون المؤمن كذابا ؟ قال : لا .

وصدق رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله ، وأولئك هم الكاذبون﴾ (١)

ولما كان الكذب شقيق الخيانة ، وهما من أبشع ما يتصف الإنسان به نفاهما رسول الله عن المؤمن حين قال : « يطبع المؤمن على كل خلة غير الخيانة والكذب » (٢)

وإننا لنلاحظ أن هذه الآفات الثلاث من آفات اللسان ، وهى مع كونها لاتكلف الإنسان شططا ، ولاتحمله رهقا لأنها مجرد كلمات ينطق بها اللسان إلا أنها مدمرات تنخر فى جسم المجتمع فتقطع ما اتصل ، وتفرق ما اجتمع ، وتبعثر الشمل الملتئم .

إن هذه الآفات تنبعث عن اللسان ، وماأسهل ما ينطق به اللسان إن كل إنسان يستطيعه دون تعب أو كلفة ، ولسهولته يقع فيه المرء وهو لايشعر ، ولهذا كان التحذير من هذه الآفات واجبا ، وإظهار بشاعتها وعظيم ضررها محتما لكى يحاول الإنسان تجنبها وعدم الوقوع فيها .

ولعظم خطراللسان يقول فيه رسول الله ـ ﷺ ـ : « وهل يكب الناس فى النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم » (٣)

إن اللسان وهو ذلك العضو الصغير فى الجسم يعتبر من أخطر الأعضاء فبواسطته

---

(١) سورة النحل الآية ١٠٥ والحديث رواه مالك فى الموطأ مرسلا .

(٢) رواه البزار .

(٣) رواه الترمذى .

يرقى الإنسان أعلى الدرجات ، ويتربع على عرش القلوب ويسيطر على نفوس جلسائه ومستمعيه ، فالشعراء والأدباء والخطباء والحكماء بل وحتى المفكرون لولا ما تكلموا به ماسادوا ، ولا عزوا ولا كانت لهم تلك المنزلة فى نفوس الناس .

نعم ، إن ما نطقوا به نتيجة لعمل العقل ، وتشغيل الفكر ، ولكن لولم ينطق به اللسان ، لظل فى زوايا العقل مخبأ مجهولا ، لا يدركه الناس ، ولا يقدرون صاحبه قدره مهما بلغ به عقله وتفكيره .

وبواسطته كذلك ينحط الإنسان إلى أسفل الدركات ويعيش مع السفلة والغوغاء ، يحتقره الناس ، وينظرون إليه بمهانة وازدراء ، لأنهم لم يسمعوا منه إلا كلاما قبيحا ، يفرق جمعهم ، ويفسد ما بينهم ، ويزين للشر فى نفوسهم ، كل ذلك يكون نتيجة لما ينطق به اللسان .

ولعل صغر اللسان ، وعدم اهتمام الإنسان به هو الذى جعل معاذاً ــ رضى الله عنه ــ يسأل رسول الله ــ ﷺ ــ : فى دهشة أو نحن محاسبون بما تنطق به ألسنتنا يارسول الله ؟

ويجيبه الرسول حاسما لكل ما يمكن أن يتصوره الإنسان بالنسبة لتلك المضغة فى فمه ، فيقول ــ عليه الصلاة والسلام ــ : « ثكلتك أمك يامعاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم أوقال : على مناخيرهم إلا حصائد ألسنتهم » (١)

ولهذا أيضا يضمن الرسول الجنة لمن يضمن له لسانه فلا يكذب ولا يغتاب ولا يسعى بالنميمة ، فيقول عليه الصلاة والسلام ــ : « من يضمن لى مابين لحييه ــ لسانه ــ ومابين رجله ــ فرجه ــ أضمن له الجنة » (٢)

---

(١) رواه الترمذى .

(٢) رواه البخارى .

٢ ــ العقوق وقطيعة الرحم :

إن العقوق وقطيعة الرحم والحسد والهجر والغش والخداع كلها آفات مدمرة نهى عنها الإسلام وحرمها على المسلمين لمافيها من إفساد ذات البين وتقطيع العلاقات الاجتماعية التى يقوم عليها بناء المجتمع ، إذ من المعلوم أن الإسلام دين يدعو إلى المحبة والألفة ، ويحرص على الاجتماع والوحدة ، وكل مايفسد هذه المبادىء فهو فى نظر الإسلام تخريب يتنافى مع قواعده الأساسية ، ولهذا فإن الإسلام حرم كل مايؤدى إلى ذلك ، واعتبره من الآفات المضرة التى يجب على المسلمين مقاومتها ، وتطهير المجتمع من شرورها .

إن أقل ماتؤدى إليه هذه الآفات من الإضرار هو أنها تبث العداوة والبغضاء بين الناس ، وتفرق بين الأحبة ، وتمزق شمل المجتمع الملتئم فيعيش أفراده متقاطعين متدابرين ، وعندئذ لايوجد مايعرف بالمجتمع حيث يعيش كل فرد لنفسه فقط ولايعنيه أمر غيره ، وحينئذ يصبح المجتمع غابة يعيش فيها حيوانات من نوع لم يألف حياة الغابات ، ولكنه عمليا يعيش حياة الغابات .

إن قطيعة الرحم إثم كبير ، وفساد مبين ، لأنه إذا جاز لمن ليس بينهم قرابة ولاصلة أن يختلفوا ويتخاصموا فإن ذلك لايجوز مطلقا لمن تجمع بينهم الرحم والقرابة ، لأنهم إذا نزغ الشيطان بينهم تذكروا الرحم وتذكروا القرابة التى تجمعهم فيختفى من بينهم كيد الشيطان .

وللرحم منزلة عظيمة فى الإسلام ، فهى مشتقة من اسم الله ــ الرحمن ــ وهى معلقة بساق العرش تقول : اللهم صل من وصلنى واقطع من قطعنى ، وقد استجاب الله دعاءها ، فوعدها ــ جل شأنه ــ بأن يصل من وصلها ، ويقطع من قطعها .

قال رسول ــ ﷺ ــ : (إن الله ــ تعالى ــ خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطعية .

قال ــ سبحانه ــ نعم ، أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من

قطعك ؟
قالت : بلى .
قال : فذلك لك .

ثم قال رسول الله ــ ﷺ ــ : (اقرأوا إن شئتم ، ﴿ فهل عسيتُم إن تَوليتُم أن تُفسدوا فى الأرض ، وتُقطعُوا أرحامكم ؟ أولئك الذين لعنَهم اللهُ فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ [1]

وعقوق الوالدين من أكبر الكبائر ، لما فيه من كفر النعمة ، ونكران الجميل ، وأقبح مايرى الإنسان جاحدا لمن كان سبب وجوده فى هذه الحياة ، إن الإنسان العاقل إذا أسدى إليه إنسان جميلا ، حفظه له مدى الحياة ، وتمنى أن تتاح له فرصة يستطيع أن يرد الجميل لصاحبه بما هو أجمل منه ، فكيف إذا كان صاحب الجميل هو سبب وجودك ؟ وكيف إذا كان الجميل هو نعمة الحياة بعد العدم ؟

ولهذا يعتبر الإسلام عقوق الوالدين من أكبر الكبائر كما اعتبر برهما سابقا من أقرب القربات ، وفى هذا يقول الرسول ــ ﷺ ــ : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) ؟
قالوا : بلى يارسول الله .
قال : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور .
فمازال يكررها حتى قلنا : ليته سكت [2]

ونحن نلاحظ هنا أن عقوق الوالدين جاء فى الحديث الشريف مقرونا بالشرك بالله ، كما لاحظنا فيما سبق أن برهما كان مقرونا بتوحيد الله ، وفى

(١) الحديث رواه مسلم والآية من سورة القتال رقم ٢٢ ــ ٢٣ .
(٢) متفق عليه .

ذلك السياق دليل على أن برالوالدين له المنزلة الثانية بعد منزلة التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ، وأن عقوقهما له العقوبة التى تلى عقوبة الشرك والعياذ بالله ــ تعالى ــ .

ومن آفات القلب الخطيرة الحسد ، وهو تمنى زوال نعمة الله عن عباده فالحسود يكره أن يرى الناس يتقلبون فى نعم الله ، فيتمنى زوال هذه النعم عنهم ، والحسد نتيجة حتمية لحقد القلب ، فالقلب الحاقد قد لايطيق أن يرى على الناس نعمة ، ويكاد الغيظ أن يغرى هذا القلب فيمزقه فى صدر صاحبه .

لماذا يتمنى الحسود زوال النعمة عن غيره ؟ أفيظن أن النعمة لوزالت عن غيره ستؤول إليه ؟ كلا ، إن هذا التفكير المنبثق عن الحقد لايحقق لصاحبه أملا ، ولايجلب له خيرا ، ولكنه يزيده غيظا وتعاسة ، ويكدر عليه عيشه ، ويحرمه من لذة التمتع بما عنده ، لأن نعم الله لاتنقطع عن عباده أبدا ، وهذه النعم لاتزيده إلا نكداً وغما إذ كيف يسبغها الله ــ عز وجل ــ على غيره ؟ فكأن هذا الحاقد الجاهل يعتقد أنه لايوجد أحد فى الدنيا يستحق هذه النعم غيره فكيف تصرف عنه ، ويستمتع بها أناس آخرون ؟

إن هذا الحاسد لو فكر قليلا ، وأزاح عن قلبه غيظ الحسد لعلم أن تمنى زوال النعمة لن يزيلها ، وأنه لن ينال بزوالها مايرضى نفسه بل يعرضها لخطر عظيم ، فالحسد داء عضال ، يصيب القلوب المريضة فيمحق منها الرضى بقضاء الله وقدره ، ويقضى على مااكتسب من الحسنات .

يقول رسول الله ــ ﷺ ــ : (إياكم والحسد ، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب) [١]

نعم ، الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، فالحسد فى الحقيقة نار متأججة فى قلب الحسود ، تحرق كل جوانب الخير فيه ، فلا تبقى فيه بقية

---

(١) رواه أبو داود .

يمكنه الرجوع إليها ، ليحاسب نفسه ، ويوقفها عند حدها ، فإذا كان لابقاء للحطب إذا اشتعلت النار فيه ، فكذلك لايكون فى القلب خير إذا استحوذ الحسد عليه .

فالحسود مهموم بالنهار لأنه يرى الناس يتمتعون بنعم الله عليهم ومغموم بالليل لأنه يفكر كيف يزيل هذه النعم عنهم ، فهو لا يرتاح أبداً ، ولايهدأ له بال أبداً .

وللحسدآثار اجتماعية خطيرة ، تهدد المجتمع بالتفكك والانهيار ، يظهر ذلك فى حياة الناس ، الحاسد والمحسود على حد سواء ، فالحاسد لاهم له إلا التفكير فى الوسيلة التى يزيل بها ما يتمتع به المحسود من الخير ، ولا يلتفت إلى غير ذلك مهما كانت قيمته ، فهو طاقة فى المجتمع معطلة ، ولو أنه صرف هذا الاهتمام فى شيء يعود عليه بالنفع ، والطاقة الهائلة ، التى سخرها فى التفكير لإزالة الخير عن الناس لاستفاد المجتمع فوائد كثيرة والمحسود حينما يشعر بالحسد لا يملك إلا أن يبغض الحاسد من كل قلبه ولو استطاع أن يفعل شيئا أكثر من البغض ماتركه والناس جميعاً يقفون إلى جوار المحسود فى بغضه ونقمته على الحاسد . فيكرهونه ويقاطعونه ، فتحصل التفرقة ، وتحل البغضاء محل الحب والولاء .

والهجر بين المسلمين فوق ثلاث لغير عذر مقبول حرام ، لأنه قطيعة مذمومة فإذا كان الهجر لسبب شرعى جاز كأن يكون الشخص فاسقا مجاهراً بفسقه ، ينصح فلا يقبل النصح ، ويوعظ فلا يتأثر بالوعظ ، ويدعى إلى الخير فلا يستجيب ، فمثل هذا ، وبعد بذل هذا الجهد معه لاستصلاحه لابأس بهجره ، لأن مقاطعته قد تؤدى إلى يقظة قلبه وإحساسه بالخطأ الذى وقع فيه ، فيرجع ويتوب ويستأنف المسيرة مع إخوانه المؤمنين .

فمقاطعة أمثال هذا نوع من العلاج ، سنه الله ــ عز وجل ــ مع الزوجة فلا بأس بأن يستعمل مع غيرها لعله يفيد ، فيقوم المعوج ويصلح الفاسد ويؤتى ثمرته المرجوة .

أما مقاطعة الصالحين من المؤمنين لأسباب غير دينية كالخلاف على تجارة

أو تشاجر الأولاد ، أو نزاع بين الناس بسبب نسب أو صهر فإن هذه الخصومة لايجوز أن تستمر أكثر من ثلاثة أيام .

يقول الرسول ـ ﷺ ـ : « لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان ، فيعرض هذا ، ويعرض هذا ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام »[1] هذا الحديث لم يتجاهل الفطرة البشرية ، ولم يدَّع أنه لايجوز للمسلمين أن يتخاصموا مطلقا ، ولو أنه قال ذلك لكان مجافيا للواقع الذى يعيشه الناس ، لأن النفوس ليست على وتيرة واحدة بل تختلف من إنسان إلى إنسان وإذا اختلفت النفوس فقديقع بينهما الخصام ، ويحصل الهجران وهذا أمر ملموس لا يستطيع أحد إنكاره .

فالخصام والهجر محتمل الوقوع ، ولا مانع من وقوعه ، ولكن الذى لا يجوز أن يقع هو استمرار الخصام ، بل ينبغى أن يكون هناك حد فاصل بين ما يكون توافقا مع الفطرة البشرية ، وبين ما يجب أن يتخلق به المسلم مع إخوانه من الصفح والعفو ، لهذا جعل الرسول ـ ﷺ ـ هذا الحد ثلاثة أيام ليرضى بذلك الفطرة ، ويوقف الغضب فلا يتمادى فيه صاحبه ، وتعود الأخوة الإسلامية إلى مكانها الطبيعى بين المؤمنين ، ويرغّب ـ ﷺ ـ فى المبادرة إلى الصلح ، فيخبر بأن الذى يبدأ صاحبه بالكلام وإلقاء السلام هو خير الرجلين .

إن الرسول ـ ﷺ ـ لم يوجب على المتخاصمين قطع الخصومة على الفور لأن ذلك سيكون حينئذ أمرا متعذر التنفيذ إذا لم يكن مستحيلا فالنفوس لاتزال فى ثورتها ، والقلوب فى عنفوان غضبها فأنى لها بالهدوء لتقطع الخصومة ، وتجدد المودة ، أما بعد أن تمر ثلاثة الأيام فإن العودة إلى ماكانت عليه القلوب من الألفة والمودة تكون قريبة التحقيق حيث تكون ثورة النفوس قد هدأت ، وغضب القلوب قد زال ، وأصبح كلا الخصمين يفكر بعقله ، ويدرك

---

(١) متفق عليه .

أن العودة إلى الحب خير من التمادى فى القطيعة والهجر .

ومن الآفات التى تعود أضرارها على المجتمع الغش والخداع ، وهما آفتان يكثر وقوعهما ممن يتعاطون التجارة ، ويشتغلون بالبيع والشراء مع غيرهم ويكون الدافع إليهما الرغبة فى الربح الوفير ، وتحصيل المال الكثير .

والمال من أكبر الرغائب التى تميل إليها النفوس ، وتلك هى الأخرى فطرة فطر عليها الإنسان أيا كان لونه وجنسه ودينه ، فليس هناك فرق بين الناس فى ذلك ، فالقرآن الكريم يقرر تلك الحقيقة دون أن يفرق بين شخص وآخر ، يقول ـــ تعالى :ـــ ﴿ وتحبون المال حبا جما ﴾ (١)

ويقول ـــ جل من قائل ـــ : ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ (٢) والخير هنا كما قال المفسرون هو المال ، وسماه خيرا ليرغب فى الوجه الذى ينبغى أن يستعمل فيه ، لأن المال سلاح رهيب ذو حدين يستعمل فى الخير كما يستعمل فى الشر فصاحبه يستطيع أن يعمر المساجد ، ويشيد المدارس ، ويبنى الملاجىء ، ويعين المحتاج ، ويغيث الملهوف ، ويطعم المساكين وبهذا المال نفسه يستطيع أن يقامر ويغامر ، ويفتح المواخير ، ويبنى الملاهى ، ويعبث ويفسد ، ويتعالى على الناس .

فالأول هو وجه الخير فى المال ، والثانى هو وجه الشر فيه ، والآية الكريمة تذكرنا بوجه الخير لنستعمل المال فيه ، وتسكت عن ذكر الوجه الآخر لما فيه من المساوىء والمفاسد .

ولما كان حب المال فطرة ، والحرص عليه يدفع صاحبه للاستكثار منه من حله وحرامه ، حد الإسلام لاستعمال المال حدودا لايجوزأن يتعداها فحرم الغش ، وحكم على الغاش بأنه ليس من المسلمين ، يقول ـــ ﷺ ـــ : « من غش ، فليس منا » (٣)

---

(١) سورة الفجر الآية ٢٠ .

(٢) سورة العاديات الآية ٨ .

(٣) رواه مسلم .

وكذلك حرم الاحتكار ، لأن الاحتكار يؤدى إلى ارتفاع الأسعار وحرمان الناس مما يحتاجون إليه ، قال ـ ﷺ ـ : « لا يحتكر إلا خاطىء » [1]

وحرم القمار ، لأنه يورث العداوة والبغضاء ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ﴾ [2]

وحرم الربح الذى يكتسبه المرء عن طريق غير مشروع كمكاسب الملاهى ومهر البغى ، وحلوان الكاهن ، وذلك كله ليكون المال الذى تقام به المشاريع نظيفا بعيداً عن الشبهات فتستقر الأوضاع ، ويتآلف الناس ، ويعيشون إخوة متحابين .



(١) رواه مسلم وأبو داود .

(٢) سورة المائدة الآية ٩١ .

الخاتمـــة

أقام الإسلام فى الأرض دولة كانت مضرب الأمثال ، كما كانت نموذجا يحتذى أمام دول العالم ، لأنها حققت الغاية التى قامت من أجلها ، ووضعت بين أيدى الأمم النظم التى سعدت بها البشرية وتحقق فى ظلها الأمن والرخاء والعدل لكل من عاشوا على أرضها .

وكانت القواعد التى أسس عليها الإسلام مجتمعه هى الركائز التى قامت عليها تلك الدولة ، وتعاون فى بنائها كل الذين انتموا إليها ، الحكام والمحكومين ، وأسهم كل فرد فيها فى رفع صرحها ، وإعلاء شأنها فكان البناء قويا شامخا ، تحدى كل الصعوبات ، وصمد فى وجه المؤامرات وقهر كل محاولات الهدم سواء كانت من الداخل أم من الخارج .

فالعقيدة الصحيحة هى أولى اللبنات ، وهى أساس العلاقات بين أفراد هذا المجتمع ، وذلك لأنها هى الرباط الروحى الذى لاتنفصم عراه ولاتستطيع أية قوة على ظهر الأرض أن تنال منه ، لأنه رباط إلهى لاتقوى يد البشر على التصدى له ، ولو حالت لارتدت إلى صاحبها كليلة عاجزة .

لقد نجحت الحكومة الإسلامية فى تحقيق التعايش مع رعاياها فى ظلال العقيدة ، فحققت هذه المكاسب الضخمة بعدد قليل من الرجال وفى وقت قصير من الزمان ، ولقد كان سر هذا النجاح الذى بهر العالم وأدهش المؤرخين أن الحكومة الإسلامية قد أخذت نفسها بنظام الإسلام ، وألزمت الرعيه بالسير على نهجه ، والتمسك بآدابه ، فأوجدت بذلك المناخ المناسب الذى يعيش فيه الناس سواسية كأسنان المشط ،وأتاحت الفرصة لكى يلتحم الشعب مع حكومته فقامت العلاقة بين الحكومة ورعاياها على قواعد متينة ، وأسس قويمة قامت على المحبة الخالصة لوجه الله ، والمحبة المتبادلة تدفع الحكام لبذل

أقصى الجهد لإسعاد الرعايا ، وتحقيق آمالهم والرقى بهم إلى أعلى درجات التقدم والتمدن ، وتوفير الأمن والرخاء والعدل لكل فرد منهم .

وهى كذلك تدفع الرعية إلى احترام حكامهم ، وتقديرهم ، وبذل أقصى الجهد فى تأييدهم وتسديدهم والإخلاص لهم والدفاع عنهم .

كذلك قامت على أساس التناصح ، والنصيحة واجبة على كل فرد قادر عليها فالذين يرون الخطأ ويسكتون عليه وهم قادرون على بذل النصح فهم غاشون لأئمتهم ، غاشون لأمتهم ، غاشون لجماعةالمسلمين .

فقد يقع الخطأ سهوا دون قصد ، أو جهلا بغير علم ، فإذا لم ينبه المخطىء إلى خطئه فقد يظنه هو الصحيح إن كان ساهيا ، وقد يظنه هو الحق إن كان جاهلاً ، وحينئذ يستمر عليه حتى يصبح فى يقينه أنه هو الحق ، فإذا أراد أحد بعد ذلك نصحه لايقبل منه متذرعا بأن فلانا وفلانا من العلماء رأونى على ذلك ، ولم ينصحنى منهم أحد ، فهل أنت أعلم منهم بذلك ، أو أحرص على الحق منهم ؟

وقد جعل الإسلام التناصح هو لب الإسلام ، وصميم الدين ، حتى قال رسول الله ﷺ : « الدين النصيحة ، قلنا : لمن ؟
قال : « لله ولكتابه ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم »[(١)]

وكما قامت العلاقات بين الحكام والمحكومين فى الدولة الإسلامية على المحبة والتناصح فإنها كذلك قامت على العدل ، والعدل هو الميزان الحقيقى لرقى الأمم وتحضرها فمهما تحضرت أمة ماديا ، ومهما بلغت من أسباب الرقى فنيا وعلميا ، ولكنها حرمت من تحقيق العدل بين رعاياها فهى معرضة للانحطاط والزوال ، لأنها لم تبلغ رشدها بعد فى عرف التعمير وأسباب البقاء ، ذلك لأن الظلم يدمر أعظم الحضارات وأرقاها ، والعدل يعمر ويعين الناس على أسباب

---

(١) رواه مسلم .

الرقى والتقدم .

ولهذا أمر الله ـــ عز وجل ـــ بالعدل فقال : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾[1] وكما أمر المسلمين بالعدل ، أمر نبيه كذلك به لينتشر العدل بين الرعية ، ولتكون العلاقات بين الحاكم والمحكوم مبنية على العدل ، فقال ـــ جل من قائل ـــ : ﴿ وقل آمنت بما أَنْزَلَ الله من كتابٍ وأمرتُ لأعدل بينكم ﴾ [2]

وقد حققت الحكومة الإسلامية مبدأ العدل بين الناس جميعا لافرق بين الحكام والمحكومين ، روى ابن هشام ـــ رحمه الله ـــ أن الرسول ـــ ﷺ ـــ كان يسوى صفوف المقاتلين يوم بدر ، فرأى سوَّاد بن غزية بارزا عن الصف ، فطعنه فى بطنه بقدح وقال : استو ياسواد .

فقال سوَّاد : يارسول الله ، أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى . فكشف رسول الله ـــ ﷺ ـــ عن بطنه وقال : استقد .
فاعتنقه سوَّاء فقبل بطنه .
فقال ـــ ﷺ ـــ : ماحملك على هذا ياسوَّاد ؟

قال : يارسول الله ، حضر ماترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك .

فدعا له رسول الله ـــ ﷺ ـــ بخير [3] .

هذه الحكومة شعرت بواجبها نحو المسلمين فاهتمت بتربية النشيء تربية حققت الغاية منها ، فأنشأتهم على الفضائل ، وحمتهم من الرذائل ، وهيأت لهم الظروف التى تساعد على النمو السوى ، وربطت بين أفراد المجتمع بروابط

---

(١) سورة النحل الآية ٩٠ .
(٢) سورة الشورى الآية ١٥ .
(٣) ابن هشام (٢ / ٦٢٦) .

دينية واجتماعية شدت بها أزرهم وأحاطتهم بسياج متين منها حتى لا ينفرط عقدهم ، ويتشتت جمعهم ، ويصبحوا لقمة سائغة فى أفواه أعدائهم إن هذه القواعد أقام عليها الإسلام مجتمعه ليست وهما لا يمكن تحقيقه ولا خيالا يستحيل أن يكون واقعاً ، بل هى حقائق طبقت فى المجتمع الإسلامى فترة من الزمان ، وأثبتت جدارتها فى القيام بواجبها ، وليس فى مقدور أحد أن ينكر ذلك أو يتجاهله ، فماذا علينا لوحاولنا إعادة بناء مجتمعنا على هذه القواعد حتى نحصل على هذه الثمرة الطيبة ، ونستمتع بحياة هانئة .

والله الموفق والمعين ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين



ثبت المراجع والمصادر

الكتـــــاب	اسـم المؤلـــف
١ ــ القرآن الكريم	
٢ ــ كتب السنة الشريفة	
٣ ــ أسس الدعوة وآداب الدعاة	د / محمد السيد الوكيل
٤ ــ الأغانى	لأبى الفرج الأصبهانى
٥ ــ إمتـاع الأسماع	للمقريزى
٦ ـالتطور والثبات فى حياة البشرية	محمد قطب
٧ ــ الحجاب	لأبى الأعلى المودودى
٨ ــ زاد المعاد	لابن قيم الجوزية
٩ ــ السيرة النبوية	عبد الملك بن هشام
١٠ ــ شرح النووى على مسلم	محى الدين بن يحيى النووى
١١ ــ الفاروق عمر	د / محمد حسين هيكل
١٢ ــ فتح البارى	لابن حجر العسقلانى
١٣ ــ القيادة والجندية فى الإسلام	د / محمد السيد الوكيل
١٤ ــ موسوعة المدينة المنورة التاريخية	د / محمد السيد الوكيل

ملاحظة :

لقد اعتمدت فى كتابة هذا البحث بعد عون الله ــ عز وجل ــ لى على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، ولم أرجع إلى المراجع التى يظنها كثير من الناس المصادر الوحيدة لهذا البحث ، لأثبت للمضللين الذين يؤمنون بأن مصادرنا فى التربية مأخوذة من الغرب ، ومن الغرب وحده لعلهم يشعرون ويدركون بأن فى ديننا ما يغنينا عن مد أيدينا إلى موائد غيرنا .

ولا يفوتنى أن أنوه بأن ديننا قد سبق هؤلاء فى تأصيل هذه القواعد التربوية بقرون عديدة والله ولى التوفيق .

المحتوى

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٣٤٥ / ١٩٨٦

الترقيم الدولى ٣ ـ ٦٢ ـ ١٤٢٠ ـ ٩٧٧

مطابع الوفاء ـ المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت . ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس . ٢٤٠٠٤ DWFA UN



هذا الكتاب

إن الإسلام الحنيف قد أقام مجتمعه على قواعد وأسس تدعم بنيانه وتشد أركانه وتقاوم كل اعتداء ، وتتحدى كل العقبات مهما كانت قوية وعنيفة . ذلك لأن تلك القواعد أقوى وأصلب من كل محاولات الهدم التى يحاولها أعداء الإسلام .

هذه القواعد هى قواعد المجتمع الإسلامى ، وهى قواعد مستمدة من كتاب الله ـ عز وجل ـ وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا هو السر فى بقاء الإسلام قويا بذاته وإن تخلى عنه كثير من أبنائه .

ـ فى ظل هذه القواعد المتينة أقام الإسلام فى الأرض دولة كانت مضرب الأمثال كما كانت أنموذجا يحتذى أمام دول العالم .

***ودار الوفاء** إذ تقدم هذا العمل العظيم تضعه بين يدى كل المصلحين والمفكرين والدعاة دعوة لهم أن يضعوا أسس بناء مجتمعهم الأول نصب أعينهم ، وتذكرة لهم أن كل بناء لابد له من قواعد حتى يثبت أمام الاعتداءات الخارجية والداخلية .*

والله نسأل أن يعم به النفع

دار الوفاء



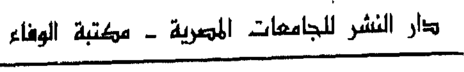
دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت ٣٤٢٧٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ص ب ٢٣٠ تلكس DWI A UN 24004

تطلب جميع منشوراتنا من :



دار النشر للجامعات المصرية ـ مكتبة الوفاء

٤١ ش شريف ت : ٣٩٢١٩٩٧ / ٣٩٣٤٦٠٦